

السلام..

قصص قصيرة

المؤلف: د. حسنة البنداري

العنوان: الكلام (قصص قصيرة)

الناشر: مكتبة بورصة الكتب للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف: للفنان عطية الزهيري

لوحة الغلاف: للفنانة زينب السعودي

الطبعة الرابعة ٢٠١٣

بورصة الكتب



مكتبة

بورصة الكتب للنشر والتوزيع

٢٥ شارع شريف - القاهرة

٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩ - ٠١٢٨٧٩٧٢٧٩٧ - ٠١٠٠١٨٨٩٣٦٣

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٨٧٦٤

الترقيم الدولي: 978-977-5016-42-3

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى صدرت عن دار الفكر العربي عام ١٩٨١ م .

والطبعة الثانية صدرت عن مكتبة الآداب عام ١٩٩١ م .

والطبعة الثالثة صدرت عن دار الإبداع عام ٢٠٠٨ م .

د. حسنة البنداري

السلام..

(قصص قصيرة)

الطبعة الرابعة

٢٠١٣

الناشر

بورصة الكتب



بورصة الكتب للنشر والتوزيع

٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩ - ٠١٢٨٧٩٧٢٧٩٧ - ٠١٠٠١٨٨٩٣٦٣

٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩ - ٠١٢٨٧٩٧٢٧٩٧ -

البنداري، حسن.

الكلام: قصص / حسن البنداري. ط ١. - القاهرة: بورصة الكتب

للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.

١٩٥ ص؛ ٢٠ سم.

تدملك: ٣-٤٢-٥٠١٦-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية القصيرة.

أ- العنوان.

٨١٣,٠١

الرسم على الماء..

obeikandi.com

الرسم على الماء

(١)

.. الرابعة ..

الرابعة فى صالتنا التى لا تضم سوانا. يتناول وحده
العشاء وأنا فى مقعدى مسترخية. عيناى عليه. الانتظار ممل.
قتل وعذاب ولحظة شرسة موصولة من يوم كنت فى الرحم.
لكن على النهار -هذه المرة- أن يمتنع عن الطلوع حتى أقول
ويقول زوجى.. زوجى! الشعر فوق الرأس متقهقر لعدة

سنتيمترات.. زوجى.. بالسوالف شعرات فضية.. زوجى..
الوقار والجاذبية والبهاء.. زوجى نجم حاضر يسطع فوقهم..
فى المقدمة. البطل الوحيد خلف نجاح كل مسرحية..

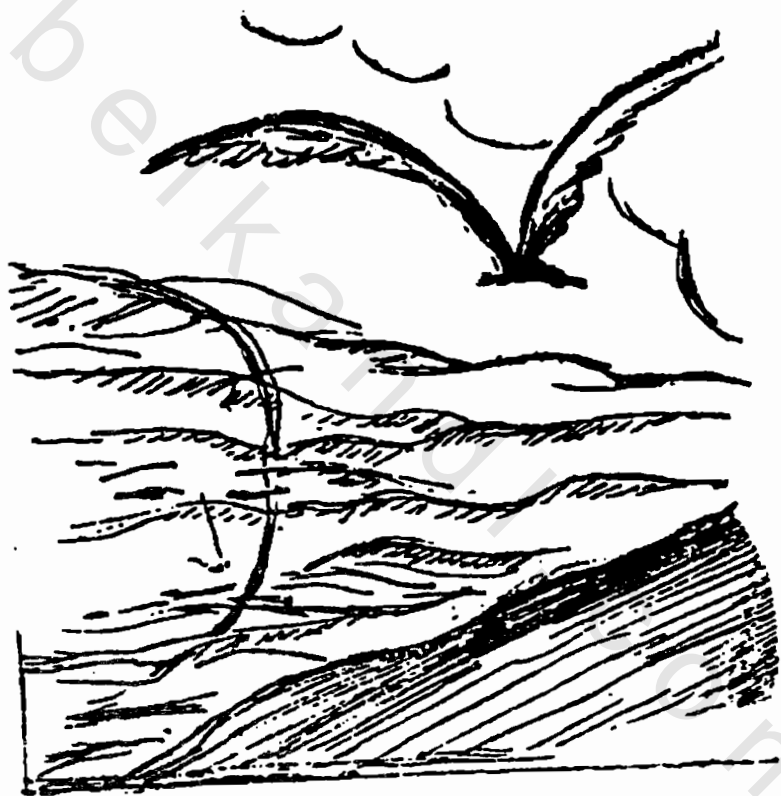
يقول برقة:

- لا يبدو أنك نمت.

طننت فى الفراغ صدى فى أذنى العبارة.. رقيقة دائما
ومهذبة بغير أن يرفع عينيه من بقايا الطعام. همست:
- نمت.. قليلا.

الصمت: ويصفقون للممثل العبقري، معجبون به،
ويثثون عليه فى صالات العرض، وأمام الأبواب، وفى التليفون
اللعين لا يكف رنينه..

الحركة فى الصمت.. يدفع بالمقعد قليلا وبرشاقة إلى
الوراء. ينهض. يمشى إلى الحمام فأسمع دقات قلبى.. دقات
المسرح الثلاث.. الحائط، خرير الماء، فرشاة الأسنان. أسمع
خطواته العائدة.. يقبل علىّ، يتوقف. يجلس ويزاحمنى
ويلاصقنى.. يشعل سيجارة، أنزاح قليلا.. ينفث دخانها
ويتابعه.. أتابع معه الدخان المندفع والمتصاعد. همست:



obeikandi.com

- إلى متى سيطول هذا الحال؟!

الصراحة لازمة ومطلوبة.. الحرية الممنوحة خداع
وهراء وكذب. الطريق مختلف.. ليس يجمعنا واد واحد..

- وماذا أيضا؟

همستُ:

- الطلاق..

- فكرت جيدا؟

- فكرت.

رد بصوت متوتر:

- قولى لى. قولى.. من يكون؟

أرتجف فلا أجيب: خرس اللسان وقطع، ويصيبني
الخدر. يمنعني الخدر من الإجابة على سؤاله.. يملأ قلبي الآن
فتى الشرفة المطلة على النهر، الذي يستفسر عنه، والذي
بالقطع لم أقابله ولم ألمسه. رغم أنني رأيتَه فى شرفة النهر..

.. أسترخى.. ويتحرك فى القلب شوق أعمى ورنثاى
تسحبان دخان سجائره. أوصل صمتي لكنني أسند -هكذا!-
رأسى إلى كتفه، ليلفنى، ولأحن إلى نوم هارب منذ الميلاد:

ويعاودنى التصفيق. أسمعهم يصفقون. فأرتفع مزهوةً بنجاحه.
ويقاطعهم بأن النجاح كله راجع إليها.. إليها.. إليها.. مشيراً
إلى، فيتوجهون نحوى، يبتسمون، يهزون الرؤس فأرتفع أرتفع
أرتفع.. أرتفع..

- أحبك.. أحبك.. أحبك..

كلمات، وهو يأخذنى، يحملنى لنستلقى معاً، يحتوينى
وأحتويه فى لحظات طويلة أو قصيرة.. لا أدري، لكنها تتسني
موقتاً من اقتحم تفكيرى فى وحدتى، ونال من زواجى:

"تسجبت ضحكاتهم وعلا الصراخ فخرجت.

خرجت إلى الشرفة المطلّة على النهر: كانت الليلة
قمرية، وكان القمر فى الماء، وكان شراع مدفوع
بالهواء والموج.. قلت: لو يصيبنى الصمم والعمى
والموت؛ جاؤونا ودائماً يجيئون للسهر، للرقص
والشراب والنظرات الجارحة.

كانوا يحتفلون بنجاح آخر أحرزه زوجى
العبرى.. وانطلقت الأجساد الداعية، رجالاً ونساء
تتماس وتتباعد وتتماس فى رقص بارع بطيء
وسريع أفاح عرقهم المعطر..

انتهى إلى فجأة صوت غازلنى: كنت وقتها
أرتفق سور الشرفة ألاحق طائرا متحيرا. تلفت إلى
مصدر الصوت فى ركن الشرفة: كان شابا نحىلا
وجميلا لم أره من قبل شاركنا سهرة.. انتحى بى
بسهولة؛ طائعة كنت.. معصوبة كنت.. نائمة ميتة
كنت، وقال فى أذننى كلاما غريبا بينما كانوا
بالداخل يجنون..

غلبنى الخدر والنعاس والطائر البحرى
يرفرف محازيا شريط النهر يتجه إلى الشمال..
وطلب أن أمنحه يدى فلم أتردد. لكن اكتشفت أن
يدى امتدت إلى الفراغ.. ففتحت وبحثت ونهضت
وهرعت نحوهم بالداخل أتفحصهم فلم أجد. لم أجد.
جننت.. خرجت لم يهتم بى أحد. هبطت لم يهتم
بى أحد.. عدوت للبحث عنه فتعثرت بحراس الليل
الليل. أوقفتهم.. صحبت فيهم طلبت المساعدة،
وصحت. أعرضوا.. بلهاء لم يفهموا..."

.. الرائحة المميزة فى ظلامنا المجروح بنار سجائرى.

تستلقى متوسدة ذراعى الأيسر -النقط المنصهرة بين أصابع كفى

اليمنى.. شاردة فى السقف، فى الرجاء المحلق فوقنا، تدعونى

وتحفزنى. تضعنى على طريق الكلمة الواحدة الحاسمة تفصلنا.

تقوض البناء.. تزررو ريح الشاطئ أوراق الخريف المتربة. لكن

كلما حاولت أن أقول الكلمة الفاعلة تنهى كل الكلام - يهرب

منى النفس والدم إلى جب غير مرئية، أريد أن يستقيم البناء،

وترتد ناصعة تلمع الأوراق الشاردة، لكن الحفز نام متواصل.

وشرود السقف ينطق بالتصميم والإثارة. الطلاق والطلاق

والطلاق ما تريده زوجتى.. ليكون الطلاق، وبعده يمكن أن تحلّ

مكانها من تتخايل لعيني منذ فترة طويلة.. بيضاء برداء أسود.

- نحن نضيع الوقت.. و

أقاطع مسلماً:

- ولا جدوى من المحاولة.

تقول متسائلة تشدد الحصار:

- وإذن ...؟

- كل منا حر.

فتطرق الساعة بعنف طبول الزنج. خامسة الصبح.
فأسحب نفساً أطول كي يبدد آخر أثر للرائحة المميزة. أزفر
وأشهب وأزفر، وزفيرى أعلى من شهيقى.. تلمسنى: فندنو،
ونهبط، ونعلو ونصعد ونمشى ونرجع، وأهرع إلى متاهات
غامضة مبهمه -هرباً من الكلمة الواحدة على طرف اللسان،
تنهى كل الكلام .. تريدها زوجتى وأريدها. لكن ما ألبث أن
أتذكر البيضاء صاحبة الرداء الأسود:

"انسابت دماء العروس رفيعة بطيئة.. فى
عينى وأنا أعتلى خشبة المسرح أودى دور هاملت
بملابس تاريخية.. كان قد مضى على ليلتنا الأولى
يومان. كنت نشوان بالأنظار المبهورة مثبتة على
حين لمحتها.. الفصل الأخير.. صامتة يكسوها
حزن أسرنى. كانت فى الصف الأول: الرداء أسود
وهى بيضاء، تراجعت عروس اليومين. جفت
الدماء الرفيعة البطيئة. كانت جالسة فى الصف
الأول، جميلة.. جميلة.. وعروس اليومين جميلة..
جميلة..

تَوَتَّرَتْ. تَوَتَّرَ هَامَلَتْ، إِذْ رَأَيْتَهَا تَنْهَضُ
وَتَوَلِّينِي ظَهْرَهَا. آه لَوْ تَبْقَى .. لَوْ تَبْقَى لِدَقَائِقِ:
أَوْشِكُ أَنْ يَسْدَلَ السِتَارَ الْآخِرَ فَيَفْرَغَ الْبَطْلُ،
وَكَانَتْ عُرُوسُ الْيَوْمَيْنِ الْجَمِيلَةِ تَنْتَظِرُ.. كَانَتْ
تَنْتَظِرُ عَوْدَتِي وَهَمَّتِي. لَعَنْتُ، وَخَرَجْتُ عَنِ النَّصْرِ
أَسْتَوْقِفُهَا.. لَمْ تَكْتَرِثْ لَصِيَاحِي..

نَزَلْتُ مِنْ فَوْقَ خَشَبَةِ الْمَسْرَحِ. تَرَكْتُ
مِمْتَلِئًا الْمَشْهَدَ الْآخِرَ دُونَ أَنْ أَهْتَمَّ بِدَهْشَتِهِمْ. لَمْ
يَسْدَلِ السِتَارَ بَعْدَ!، وَرَنَّ فِي الْقَاعَةِ صَوْتِي
وَصَدَاهُ.. لَمْ تَمْتَدِ الْأَيْدَى كَالْعَادَةِ، تَرْجُو
تَوْقِيعِي.. السِتَارَ لَمْ يَسْدَلْ بَعْدَ!. الشِّفَاهُ تَنْفَرِجُ عَنْ
الْأَسْنَانِ بِالْدَهْشَةِ وَالذُّهُولِ. مَا زَالَ السِتَارُ مَفْتُوحًا
عَلَى حَرْجِ الْمُمَثِّلِينَ وَغَضَبِهِمْ.. وَحِينَ لِمَحْتَتِي
أَقْتَرَبَ مِنْهَا جَرَتْ، تَبَاعَدْتُ عَنِ النِّجْمِ الْعَبْقَرِيِّ.
وَلَمْ أَسْتَطِعْ مَلَاَحَقَتَهَا.. كُنْتُ مَا زِلْتُ مَكْبَلًا بِرَدَائِي
التَّارِيخِي. وَكَانَ النَّاسُ حَوْلِي مَتَكَتِّلِينَ مِنْدَهْشِينَ.
فَتَصَنَّبْتُ -مَثَالًا- صَوَانًا- تَحْتَ ظِلَامِ الثَّالِثَةِ...

.. النهار يدخل من الشيش خلف الستائر ونحن نسبح
 فى العرق.. أنفاسنا ذات حركة واحدة .. أشعر بالبرودة: أجمع
 جسدى .. أجمع القطع المتناثرة. أنسحب. أنزل وأرتدى..
 أجلس فى المقعد أمام الفراش لا أنظر ناحيته.. مازال يشير
 إلىّ يدعونى ويغوينى. لكنى لا أجيب: قلبى لا يريد، ولا
 أصدق. آسف على اللحظة الماضية واللحظة الحاضرة
 واللحظة المقبلة.. أكره وأنفر وأغضب وأنشد التراجع والسقوط
 فى متاهة مجهولة.. هكذا أكون كلما وقع العناق والتلاشى.
 ألعن ألعن فى سرى. ألعن حين يقربنى إليه هذا الدبيب الخبيث.
 ألعن وأمقت دون جدوى: يقطع لسانى سارقاً منى (لا) حازمة،
 عنيدة، لتبقى فى فمى "نعم" بالرغبة والجموح والجنون..

رأيت ألف ألف نهار ويأتينا -الآن- نهار جديد وأنا
 أحاول الكلام:

- لم أعد أحتمل. لم -أ-ع-د-أ-ح-ت-م-ل.. خلصنى..
 خلصنى..

ومتى أفتح عينيّ أرى الصباح ناصعا وجميلا.

- كم أنت جميلة وأنت غاضبة يا عزيزتى.

ومتى أفتح عينيّ أرى النهر -بلا قمر- يغشيه الضباب
والصمت والفرع.

- وعدتتى.. وعدتتى.. و..

ويطوقنى، ويقبلنى فأسكت.

أنظر -الآن- ناحيته.. أشهده، أنصت له يدعونى
ويغوينى. أقف فيقف فأصدم بعريه. فيتمزق الرداء، ينزف
الدم.. فتضرب نراعى فى الفضاء، فى الماء تطلب القمر
والطائر والكلمات الجميلة الأسرة قادتتى إلى العالم السحرى.
لكن لن يستجيب أحد: جدراننا صماء.. صلدة. جدراننا ملساء.
فأدفن فى الصدر العارى وجهى، بينما يكلمنى فتى الشرفة فى
القمر فى الماء يعلوه الطائر النهري:

".. رن جرس التليفون فرفعت السماعة.

أتانى صوته وديعا أسرا.. استغرقنا الكلام.. كنت

وحدى خارج حدود الزمان والمكان. أبديت رغبتى

الهائجة فى رؤيته.. وقلت لىن أندم لو النقىنا
وتعارفنا، قلت بغير خجل: امثلكنى فأنسانى الرادع
والمحظور والأحكام المتوقعة على السنة المراقبين
تجرىنى وتديننى. وقال: أنا غير راض عما وصل
إليه حالى، وقال: إن الحل بيدك، وسألته عن نهاية
لعذابى فصمت.. صمت لأغفو أمام التليفون لا
أرى سواى، وأصحو أستحث الرنين..

وفاتحت زوجى حين عاد بأننى لا أنوى
الخداع والغدر.. فابتسم وقال بلهجة مسرحية: أنت
سيدة عظيمة وشجاعة. وقال: لك يا عزيزتى مطلق
الحرية، ومن حقاك أن تختارى، ولكن يا عزيزتى
المسكينة: هل يمكن أن تخبرينى؟ من يكون؟
وأين؟.. ومتى؟! و.. و.. لدغتنى الأسئلة
المحاصرة.. اغتممت فلم أدر بماذا أجيب، فقبلنى
زوجى لم ينس وخرج بوجه هادئ وجامد
فأغمضت فغفوت..

انتبهت بالجرس. عاد الرنين: طلب فى

أذنى أن أهبط فوراً إليه. فقلت أقترح: لو حضرت

إلى؟. أمرنى أن أهبط فوراً إليه على الشاطئ.

تهللت. فتحت وغادرت قفزت قطة سعيدة. لم أنزل

بالمصعد، نزلت على درجات سلم ست طوابق

درجة درجة. كل درجة تسهم فى يقظتى حتى

بلغت الباب..

لم يكن على كورنيش الشاطئ أمام عمارتنا

أثر لإنسان. وكان الظلام شديداً.. قلقت.. وكانت

الريح نشطة مرعبة تصفعنى بأوراق شجر جافة.

ودق قلبى ودق. خنقنى البكاء وأنا ألقى على سواد

ماء النهر بصرى. ثم شعرت بأنامل تتقر برقة

ظهري.. استدرت فوجدته ففرحت.

حين هممت بأن أرتمى فى حضنه تراجع

بطيئاً ثم بسرعة. كنت مشتاقة. غيبه الظلام. ثمة

ألف يد شدته بعيداً عني وأنا المشتاقة. جثوت

أنتحب. نهضت ونظرت إلى سواد الماء ولم يكن
قمر.. وسمعت خطوات ثقيلة تقبل على. كانت
كثيرة وموحدة: كان الحرس الليلي. أقبلوا برغبة
واحدة. دفعوني جميعاً أسقطوني فوق طين وحصى
وأعشاب الشاطئ.. نالوني جميعاً. اغتالوني جميعاً."

(٤)

.. القلب مكسور بكلمة واحدة لا يفصح عنها اللسان. لا
مهرب من العدو لها معنبا وراء وهم من صنعنا اللحاق به
معجزة المعجزات، ويبقى أن نبوح خلاصاً من ترقب مرسوم
بالأعوام.. وحينئذ يمكنك أن تسترد راحتك الهاربة. وبقدر ما
تتوقع من عواقب محتملة سوف تمحو النتيجة المنشودة الآثار
المتربة.. همست بيأس:

- لا فائدة.

عقبت بسرعة:

- أعرف.

دون غضب لأنني قادر ومقتدر.. قدرتُ أن يتسع
الصدر بسعة العالم ليلجه الفعل والعجز، الصواب والخطأ،

النفور والوله دون انتظار لمواساة أحد. ولن يحاولوا الاقتراب لمعرفة ما يجول بالصدر، ومطلوب منك رغم الرفض أن تصدر الكلمة الواحدة بلا تردد.. واصلت الهمس:

- أريد أن أستريح.

- وأنا أيضا.

بالضيق والغضب والألم. ليكن. لكن لن تغلق الباب في وجه أحد، ولينسع الصدر أكثر، ليست الراحة مقدرة لك، ولن ينصت للشكوى أحد. سألت محتجة:

- إلى متى تعذبني؟؟!

تساءلتُ مستكراً

- إلى متى تعذبونني؟؟!

ويسقط سؤالانا في اتجاه واحد. لا جواب لدينا.. أنظر في عينيها الجامدتين تثيران كوامن الغضب. أغمض فيأتي الذين استوطنوا الصدر قهراً وقسراً، أفرح فهاهم قد جاءوا للمشاركة والعمل. أقرر أن أشكو فيختفى الأوغاد. أحزن فتقبل البيضاء الجميلة بأذني فيل. أنطق فترتد هاربة بلا سبب. أفتح

فتطالعنى بالجمود والبرودة.. سياط تلهب الصدر بغير أن
يواسي أحد!:

".. كنت فى بداية الفصل الأول لا أعى ما
يحدث حولى.. تعثرت ونسيت وأنا المشهور بإتقان
الحفظ، فاضطر الملحن إلى رفع صوته درجة أعلى
غير مسموح بها سمعها المشاهدون: كانت قد
جاءت البيضاء لترانى واعدة بأنه سوف يمكننا
الليلة عمل كل شىء.. كنت أتعجل.. وأقول كلاما
خارجا عن النص..

شعرت بالقزع عندما نهضت تتساب طيفا
بين الصفوف، فغادرت الخشبة. هبطت إلى الصالة
أجرى. تعثرت وقمت وتعثرت بصدر زوجتى
النائمة. بكيت وتكلمت محموما بكلمات لم تفهمها..
وقالت زوجتى: أنا لم أعد أطيق.. وقالت: كلانا
سيُجن. ثم راحت تهذى بكلمات لم أفهمها.. ثم
تقاربنا وتعانقنا.. وحين همّ كل منا بالآخر زارنى
وجه المرأة البيضاء حزينا منكسرا.. للحظة وولى.

هرولت بردائی المسرحى.. وسمعت زوجتى
تضحك وتوجه كلاما إلى رجل غیری لا أتبينه.
واجتذبتى خطوات المرأة تمنع فى الجرى هربا
إلى ظلام لم يكن فيه سواى. على حين نادتنى
أصوات أمرة غليظة استوقفتنى فلم أنصت..
الحرس اللیلى. تكررت الأصوات تصنع الرعب
والفرع فلم أنصت.. وصفق المشاهدون فى القاعة
المكتظة فلم أنصت، وقالوا عبر الهواء اللیلى: أنت
فخر عصرنا فلم أنصت. لم أنصت. فسارعت تمتد
نحوى أیدی الحراس والمشاهدين وسكان المدينة لا
ترجو توقیعی.. انهالوا على "النجم" ضربا
بالأیدی.. بالأقدام بغير رحمة.. لم أشأ الهرب..
حاصرونى.. تمكنوا.. دفعونى إلى الكورنيش..
إلى أعشاب الشاطئ.. مرغونى.. تجشأت دما
وقهرا تحت عیون نارية.. لكن لم أهتم بما
يصنعون.. أقبلت المرأة غیر كلیمة تنسینى
الشراسة والقهر بينما استمروا فى عملهم".

(٥)

.. طلع النهار..

يغلبني النوم ..

فأتمدد إلى جواره بلا كلام..

(٦)

.. آه.. ها هو النهار قد تنفس .. بغير أن نقول الكلمة

الواحدة، الحاسمة تنهى كل الكلام.. النوم: أستدير نحوها..

نامت. تغمض على الوجه البديعي عيناى..

يناير ١٩٧٢

obeikandi.com

الكلام...

obeikandi.com



obeikandi.com

الكلام..

(١)

..السيارة الأتوبيس تدنو من الميدان. بطيئة متناقلة
بسائق كسول لكنها تقرب من موعد الاحتفال بالعائدين من
حرب انتهت منذ أربعة شهور، والنهار الأبيض يوشك أن
تبزغ شمسهِ يقرب من الموعد المنشود.

أحشو صامتاً أننى بكل الأصابع، وأغمض عيني
لأحصى ضربات قلبي السريعة المبهمة: أقترُب من مكان

الاحتفال. مدرستى التى عدت إليها بعد انتهاء الحرب، المقدسة. لا أنوى الكلام. سوف اكتفى بالاستماع. لكن تواردت على ذهنى تفاصيل "الكلمة الفاتحة المنتصرة" التى سيقولها فارس الفرسان أنا فى الحفل المنشود، بمناسبة تكريمنا.. تكريم أبطال الحرب العائدين المنتصرين: داخلتنى أصوات زملائى الأبطال قالوا:

- الكلمة لك. لك. لك.

قالوا وصمموا بنفس واحد، و:

- اتفقنا على أن تكون أنت المتكلم..

قالوا بقرار حاسم لا يقبل ردا.

- زملائى الأربعة حاصرونى. طوقوا هروبى. إرادتى.

لم يستجيبوا لتراجعى واعتذارى. وقلت:

- اعفونى. يمكن أن يتكلم واحد منكم.

- اتفقنا على أن تكون أنت المتكلم باسمنا.

- لا أرغب فى الكلام.

- لا مفر.. هذا قرارنا جميعا.

- وليس لدى ما أقول.

- بل لديك الكثير .

قالوا وغادرونى .. الخطيب المفوه!! أنا الخطيب
البارع المفوه؟.. صدى صوتى فى الوادى. والوادى صخر
صلدى أملس لا ترتاده قدم، فضاء صدى صوتى. ما فائدة
كلام الخطيب المفوه؟!.. جمعتهم وعاديت الاعتذار فلم يقبلوا.
تشددوا. وهددوا بالغضب والخصام..

(٢)

.. أوقف السائق الكسول السيارة "بفرملة"، بزلزال
مفاجئ. تتفتح عيناى.. تطير أيد وأقدام ورؤس. المحطة.
الوصول.. البداية والنهاية، ينهض جسمى.. يتحرك مغادرا
المقعد. ينزل. تحتوينى -الآن- محطة الأتوبيس. يحتوى فارس
الفرسان. تسرب الركاب فخلا الميدان. لا ناس، ولا شمس.
ولا جمهور يعرفنى.. أجر ساقى والنوم سلطان غالب يغازلنى.
كيف أنام والكلمة لى؟!.. ها. للفارس النكرة الكلمة الفاتحة.

الموعد.. أتذكره فأتوتر، فأسرع للحظة الخطو، لكن
سرعان ما أبطئ لأتوقف وأستأنف وحدى قاطع دورة الميدان

يعلوها جسر المشاة الجديد. أصد السطم. أفتحص بعناية وجوه
المديرين والمقبلين.. لا أأء يعرفنى. لا أأء يعرف البطل!!:

"وقت الفجر جاءوا.. جاءوا وقت الفجر."

بعء أن فرغت من إعداد "أءس" جديد جاءوا .. أنا
مأرس.. كانت زوجتى -عءما جاءوا- نائمة
أأأأنها ابتأا المريضة النائمة.. وكانت كل بيوت
ألى نائمة. لكنهم جاءوا!. أنصأ لرنين أجرس
الباب فى البءاية كالألم.. أأأأ فى الظلام
ابأأى المريضة النائمة. أيقظأ أواسى كلها على
أواصل الرنين!. العالم مهءء بالزوال!. هل العالم
مهءء بالزوال وأنا المنقذ الوأىء!?. وأأأ أأيفا من
أفراش، وقفزأ من أجرة إلى الباب إلى الصالة
إلى باب الأرس. فأأأ فسأأ الأرس.. رأأأهم
فى الظلام: المأبرون.. جاء أأأرا فى الفجر
المأبرون.. أأوا بابنا. كلمونى وكلمأهم.. أأبوا أن
أوقع -أنا- على ضوء كشافهم أأأأ. وقأأ
على أمر اسأأأاء عاجل للأأأام إلى وأأى

التي غادرتها منذ ثلاثة شهور بخطة تمويه ناجحة.
هاهم يخرجون من الجيش. لا حرب. اطمئن
الأعداء وتراخوا. ابتسمت وأنا أسمع صوت محرك
سيارتهم المنetzلة. كانوا عجلين فوقعت أمر
الاستدعاء.. وقلت: الآن؟! فقالوا: الآن. بينما
لايكف محركهم. كانوا عجلين. استأذنتهم فأذنوا
وسمحو شرط أن أسرع.. نفذت الشرط.. كانوا
عجلين. خطفتني يد وأودعتني في سيارة كبيرة
مغبرة يقودها سائق متوتر تحت فجر بلا ضوء..
ثمة جنود غيرى جالسون تم استدعائهم. أسرعت
السيارة أسرع وأسرعت. مسافات طويلة قطعنها
سيارة الفجر. طلع النهار وأشرقت الشمس. تسالقت
جبلا اتجهت إلى قمته"..
(٣)

.. أنتبه على ساعة مواجهة.. "الجامعة العربية". جسر
التحرير الدائري بدأت تتكاثر فوقه أقدام المشاة. أنا وسط
الجسر الآن. الفارس النكرة.. لا يعرفنى أحد. والأعلام

المرفرفة بهواء الصبح تتحدى: ".. كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء" .. البناء الشاهق شاهد على.. على.. على. أين تفاصيل الكلمة؟ الحروف المتوارية؟ ليصول بها ويجول فارس الفرسان عنثرة؟ انزل.. انزل.. انزل. ولا أفعل؛ أعتصم بالعمى، والصمم. والصمت:

"عارضتني صورة ابنتي المريضة وزوجتي المهمومة وأنا أحمل "شدة" الاستدعاء الأفارول والبيادة: كانت ابنتي وزوجتي ترقبان ما يجرى حين استدرت لودعهما في فزع.. كانتا ترقبان بذعر "شدة الاستدعاء" .. انصنت زوجتي إلى صوت المحرك وهي تحمل ابنتنا المريضة شاهدت المصباح الكاشف.. فجريت احتضنهما وأقبل سنواتي الست أقبل مني المحمومة ابنتي.

.. تجاوزت نظرات الأم وربت الخد. قطعت في لحظة واحدة مسافات هائلة.. لأبد يا عزيزتي من الذهاب رغم أى شيء. الأمر الصارم.. لا تقلقى.. لا تحملى الهم. سأعود.

وحضرت فى الذهن مواقع الوحدة فى صحراء
تعلو رمالها آثار بقع بنية ماتزال وشريط مياه القناة
يفصل بين خطرين هما: هل يحدث؟ ولم يجب
المخبرون!. لم يجب أحد!! الجواب المستعصى
ظل فى السيارة تأخذنى إلى مركز "التعبئة" .. منى
المريضة عجزت عن النطق.. وكان هناك غيرى
كثيرون. وكانت سيارات تقبل وسيارات ترحل
تحت زرقاء الصباح الأول.. شعرت باليقين يتملكنى
وأنا أفتح "شدة" الميدان" *.. لارتدى الأفارول وألبس
البيادة.. عرفت .. وصاح صائح: لا مفر. وقلت
فى نفسى ليكن. وصاح صائح: بنتى بنتى. وقلت
بدا: وجهها باهتا خلف غلالة رقيقة.. ثم .. لم أعد
أقول "بنتى" وعيون مبهمه تنتظرنى. فهمت.
وكلمات غامضة تحركنى.. عرفت.. إلى مساحات
رملية بعيدة أسلمتنى إلى وجوه قلقة، إلى "شُمة"
مكبلا بسلاحى و"شدتى"، يهبط من فتحتها وجوه

* الشدة: مهمت الجندى العربية الخفيفة.
* الشُمة: حفرة تضم الجندى والسلاح.

ونسَمات وأصوات غامضة.. فتذكرت "وحدتى"
التي غادرتها منذ ثلاثة شهور، ورأيت المدفع
الصغير ١٢.٧.. عدو الطائرات المنخفضة..
وحوله نعمل نحن أفراد الطاقم. نرصد الهدير
للعين.. ارتجفت وتوارى الوجه المحموم الحبيب
بالمسافة والعمل..".

(٤)

.. دقت الساعة دقات لا أحصيها. أمشى.. أنور مع
دورة الجسر.. لا أسمع وقع خطواتي. أنزل وينزل عنجرة.
أنزل نكرة لا يعرفنى أحد.. أمضى اتجاه المدرسة..
توقفتنى على الناصية صحف الرصيف "بمانشيتات"
عريضة وحمراء.. أشتري الأهرام. أطويها وأضعها تحت
إيطى الأيمن وأتابع.. أميل مع الرصيف إلى الشارع الضيق..
المدرسة فى الوسط "القريبة". أقترّب دون رضا.. أقدمى
متريدة..

أصوات الطلاب المنتظرين تصل إلى.. تصل واقعا
أليما لا أرغبه.. نفسى يضيق.. أفق وأتسمر لأدلك نشاطى

وأحفزه. أسحب الصحيفة، وأفردتها: "المانشيت" الأحمر صارخ
يعيد بصر الأعمى، ولكن عيني لا تقرأ الحروف.. ثمة صور
وأصوات فوق الحروف لا تمكنني.. تدفعني إلى الحركة فأتقدم
ناحية البناء بصور ذات أصوات نشطة: ".. نادوا ونادوا
بأصوات أمرة حادة وصارمة:

"كنت قد غفوت بكل ملابس بعد أن بلغت
الجبهة. توسدت شدتي وقبضت على سلاحى.
غفوت وأنا أنتظر الجواب. صعدت قبل أن تطرف
العين. السرعة. السرعة. لببت الأصوات الآمرة.
شعرت براحة تغزوني وقلت لنفسى إن قلبى لا
يكذبنى. وكان قد بدأ الشروق. ضموني إلى وحدتى
التي غادرتها مسرّحا- منذ شهور ثلاثة. لقيت كل
الزملاء. لم يتخلف أحد. ابتسمت لهم. ابتسمت
لأول مرة منذ فجر أمس. تعانقنا بحرارة وتساؤل
صامت لا يبين. لكن سألتهم فقالوا: لا نعرف، ثم
قالوا: "مشروع" ثم قالوا: "مجرد تنظيم"، ثم قالوا:
"اختبار لسرعة التجمع"، ثم قالوا: "لعلها الحرب"،
ثم عادوا وقالوا: لا نعرف. لكن قلبى قال لى كلما

واحدا.. وقال القائد فى الفجر بلهجة صارخة:
"اسمع الجنود: سوف نعبر هذا الماء لنحرر
ونسترد.. و.."

(٥)

.. الباب باب قلعة يفتحه عم "حنفى" البواب للمدرسين
والعاملين فقط. الباب مغلق يفتح بالطرق أو النداء.. أقف أمامه
دون أن أطرق أو أنادى.. أصوات التلاميذ العالية فى الداخل
تذكرنى بوقوفى، بحيرتى بتمنى، بحصارهم، بقرارهم، وبحكمة
الصين المشهورة: " لا أسمع ولا أرى ولا أتكلم" آه .. هل تغادر
القرود الحكمة متكلمة سامعة مبصرة؟!

الأصوات تعود- تصك أننى بقنابل وصواريخ وأزيز
طائرات منخفضة مهاجمة.. هل تسقط من الحكمة أصابع
الأذنين والعينين والشم؟ .. هل يتحرك التمثال وينطق؟.. أنا
لست أنا يا عم حنفى، فلا تفتح الباب للذى ليس أنا. يا عم
حنفى أنا راجع فاعتذر لى. أنا راجع. قل حضر ولم يرد. قل
حضر ونادى ومات. قل أجلسه راضيا طائعا على قاعدتها.
قرود الحكمة.. قل..

وقاطعني صوت أعرفه:

- افتح يا حنفي.

أثقلت إلى مصدر الصوت الذي صدر غدرا وسوطا.
خامسنا. خامس أبطال النصر يتأبطني وباب القلعة ينفتح.
نصعد معا الدرجات. الجبل القائم صعدها. صعدها بحذر.
السقوط من فوق قمته.. الآن نجلس بعض الوقت فى حجرة
الناظر..

تابعنا المحفلون يتوسطهم مدير المنطقة التعليمية.
ننهض ونمضى إلى المسرح. يستقبلنا التصفيق الحاد معجبا
ومحييا.. عيناى تتجولان فى المكان.. تتصدر الجدران صور
تعلوها كلمات: "العبور التاريخى" "العبور المعجزة" -"قهر
الجيش الذى لا يقهر!" - "الخط المنهار" .. وألصقت أعلام
العرب.. ألصقت صور وصور وصور و.. و..

(يسر إدارة المدرسة أن تقيم هذا الحفل تحية للدور
المعجز الذى بذله أبطالنا و..)

".. تلقينا الضربات المجنونة ليلا ونهارا..

وكنا نكبّر ولم نتراجع هذه المرة. كنا مصرين.

كان التقدم إلى الأمام بسرعة هدفا ورجاء وأمنية
رغم كمون الخطر في كل خطوة و..

(.. إن العالم قد اندهش.. العدو قبل الصديق.. ويخفق
لجماهير العرب أن ترفع الرأس وتعلو وتصعد وتطير وتضحك
وتأمن وتتنفس وتغنى وتنام وتفرح وتضحك وتضغط على
مخارج الحروف و...)

"..وجاءت منى وأنا أكبر مع المكبرين
صفراء نثن ببابا. في زوار فجر رحلوا والناس
نيام. في استغاثة طواها هدير "كاسح"، "غاطس"
لطائرة معادية أطاحت بأجسام الموقع.. طاقم
المدفع المضاد، فطارت الأجسام وتحطم المدفع:
الشظايا.. الأشلاء.. تتأثرت.. الأجسام الحية
(كانت!) رؤوس وأذرع وسيقان وأقدام، وتفكير،
وناس ينتظرون شوقا عودة الغائبين. وأطلت
رؤوس بغير أجساد على من حافات الحفرة.
فزعت، وهربت بعيني إلى القاع حيث أقف فرأيت

لونا بنيا على وجه الرمل رسم خطوطا وبقعا
ودوائر متنوعة الأشكال... و...

(.. استرددنا الكرامة والعزة. طال الصبر ولكن الإرادة
لم تهن. سقط شهداء لنحيا نحن.. الطريق الطويل لشاق قصره
ويسره أبطالنا.. أبطال النصر.. و..

"...تلقفتي أيدي أطباء راحوا بعناية
يفحصونني، كبلوني بأجهزة وآلات طبية متنوعة،
وأسمعوني كلاما مفعماً بالبشر والتفاؤل، ثم ابتسموا
في وجهي؛ فعرفت أنني نجوت، وعلق القائد على
صدري وساماً ملوناً، وقال: صمدت وأسقطت
الطائرة التي أغارت على الموقع، فقلت في نفسي:
بنيتي "منى"، وقال: أنت رمز المقاتل الجديد. وقلت:
بنيتي الآن. زوجتي.. فجرى.. منزلي.. حيي الآن.
وعدت بشهادة تشهد بخط أنيق أن "المذكور أبلت
بلاء حسناً" لأزين بها صالة منزلنا.. ولما فتحت
بابنا كانت زوجتي الحسنة متشحة بالسواد، وكانت
نحيلة، وكانت صفراء، وكانت مينة فوق مقعد
تحت صورة كبيرة لصغيرتنا الوحيدة منى. لم تهب

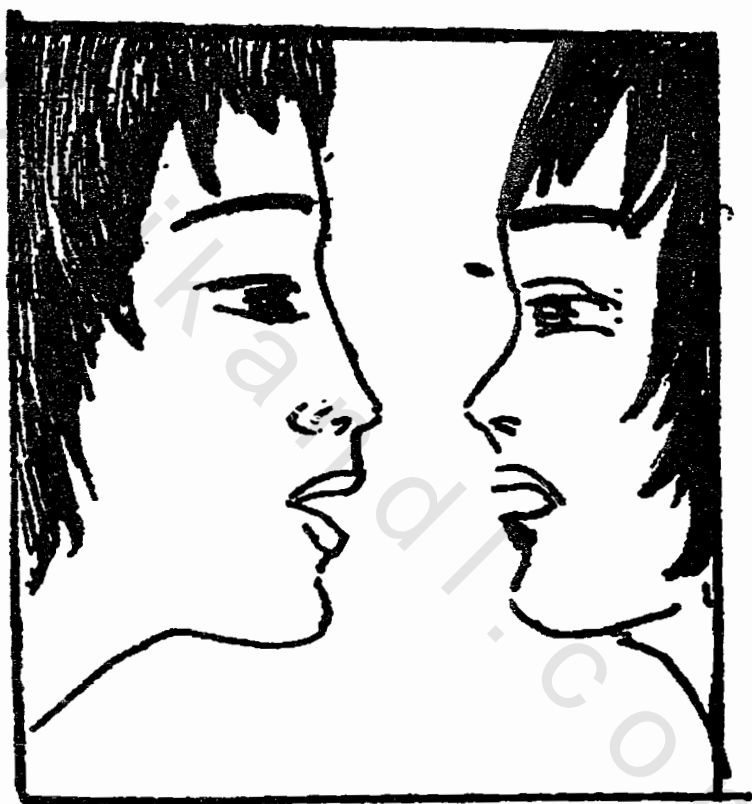
زوجتى المينة لاستقبالى.. فقط أدارت وجهها ناحية
الصورة وأطرقت، وقالت دون أن ترينى عينيها:
"منى" ماتت..ماتت..ماتت.. و..

(.. الآن يتكلم واحد من هؤلاء الأبطال الذين صنعوا
المعجزة وقهروا الأسطورة الكاذبة.. واحد من بواسلنا يحدثنا
عن قليل من كثير مما حققناه فى حربنا).
التصفيق يفرق فى القاعة المزينة. أنهض.. يحتد أكثر
تمتد يدى إلى "المايك" الخشن تقبض عليه.. أصمت..
لسانى ساكت فى فمى المغلق. أنقل نظراتى بين
الوجوه... الصف الأول، الثانى، الثالث والرابع والخامس..
أصل إلى نهاية القاعة.. أفتح فمى لأتكلم لأخطب لأقول
كلمتى.. كلمتنا.. ولكن لسانى مازال ساكنا لا يتحرك. فعيناي
على تمثال الحكمة الصينية.. فتتراخى قبضتى وأحملك أكثر:
تنب من قاعدة التمثال القروود الثلاثة. تنب وثبا فوق رؤوس
الحاضرين.. تصل إلى.. تنزعنى القروود ولا أعترض. ترتد بى
عائدة إلى نهاية القاعة ولا أعترض. تغرسنى فى القاعدة
الصلدة وتهرب ولا أعترض.

نوفمبر ١٩٧٤

مقاطع من أغنية غير مسموعة..

obeikandi.com



obeikandi.com

مقاطع من أغنية غير مسموعة..

المقطع الأول:

.. مربع النافذة الزجاجى مازال يطل على المشاهد
النحاسية. أهجر المرأة وأقترب.. أراهم يطلبون عنق المطارد
تحت سيف الشمس القاطع.. رماحهم الذهبية ملحة لا تمل،
مصوبة، خبيرة جانية تعلو صيحاتهم الأمرة المنذرة. لكن خطاه
الكليلة تضرب وجه الرمل.. لا تصدع رأس العنق المطلوب.
تعرف.. ترجو تلا رمليا غير مرئى..

أرجع إلى المرأة مبتعدا عن الشراسة، هاربا من
المصير المنتظر، فأتكئ على صورتي المعكوسة تمثل الوسامة
والأناقة.. أصعد من مثلث "الكرافتة" تشنقني إلى نقي الحلق
إلى جبهتي إلى شعري الأبيض الجائر على شعري الأسود..

أفقا عيني برمح ذهبي فلا أبصر غير سهرة حافلة
أغشاها وزوجتي بعد قليل، لنلتقي قسرا ضربات واعية في
مقاتلنا بينما نحن نبتسم..

أفتح لأجدي بأناقتي ووسامتي.. رأسي الأبيض الأسود.
لا أبتسم.. أنا مستعد. علينا إذن أن نذهب إلى الشقة رقم (٥)
المضيئة هذه المرة: نحن سكان الطابق الثالث نلتقي أسبوعيا
لنتحدث ونأكل ونشرب ونفرح ونحزن ونغضب ونجامل
ونمضغ لحما نيئا ونسفك الدماء.. وتساءلت في نفسي: هل
انتهت زوجتي لنخرج إليهم؟ أنا تقريبا انتهيت. بل انتهيت فعلا.

سألتها بصوت:

- انتهيت؟

فردت بسرعة.

- بعد قليل أكون جاهزة.

أتحول عن المرأة بصوتها الرفيع الحانى. أسعى إلى
المربع الشفاف لأشهد الراح المصوبة على ظهر المطارد
الصحراوي... أنا مطارد يا خلق بأكلى البشر..

تأخرت.. فكررت السؤال:

- انتهيت يا عزيزتى؟.

أسمع صدى صوتى يختلط بزئيرهم تحت ومضات
الراح، وبأصواتهم المنكرة تضطهد الهارب المتخن.

صحت بتوتر:

- تأخرنا..

أرتد إلى المرأة لحظة وأضجر.. فأعود إلى مربع
النافذة أراهم منتشرين.. تبارق تحت الضوء عيونهم المطاردة
منذ اللحظة الأولى، وتذكرت أول اجتماع انضمنا إليه:

"اجتمعنا نحن سكان الطابق فى الشقة

رقم (١) بقصد التعارف.. كذت سعيدا ضاحكا

مستبشرا أحتوى بعينى زوجتى السعيدة، وكان

الجميع يلاحظون سعادتنا وبشرنا.. وفجأة تغيروا

وغيروا.. سألوا وسألوا وسألوا وألحوا بوجوه
جامدة ونظرات متعالية. اغتممت واختلت
زوجتي.. عبسنا، تبدى الأمر كما لو كنا ضمن
حكاية مروية للمرة الألف.. لقطة سينمائية رأى
المخرج ضرورة إعادة تصويرها، فرأيتني كرة
أعلو وأهبط وأعلو.. نظرت فوجدت العيون لامعة
واسعة تبرق كالرماح تراقب وتحسن المراقبة، ثم
تتصرف بنا إلى صغار كثيرين متفاوتة أشكالهم
وأطوالهم وأعمارهم ملكوا أقداما وسيقاننا وأزرعا
وأكفاً وأصابع ذات أظافر بيضاء صغيرة، وعلت
رقابهم رؤوس بعيون وأفواه وشفاه وأسنان
صغيرة.. وكانت لهم رائحتهم. فهبطت وهرعت
بامرأتى إلى الباب. إلى الممر إلى المسكن إلى
الفراش نسرف.. ثم وثبت إلى قلب المدينة بل
الأسطح بل الجدران بل الشوارع المهجورة بل
الأطراف أسلمتني إلى خلاء الصحراء نعامة تبحث
عن تل الرمال.."

المقطع الثانى:

.. أنا جميلة ومتفوقة على غيرى من النساء. نساء
الطابق والعمارة والحي.. متفوقة على كل نساء المدينة. لا
غرور: تشهد مرأتى ويقلن ويقولون.

أختار لقوامى الرشيق من الملابس ما يناسبه، أعرف
كيف أنقى "الموديل" واللون والحذاء، أجيد فهم الناس. أجيد فن
الحديث والطهى وإعداد المائدة..

مجدة فى عملى. الرؤساء يثنون والزملاء راضون.
باختصار "أنا أملك ميزة الحضور" كما أسمع من رجال
جارأتى الخمس: جارأتى الخمس وإن كن عاديات لا يلفتن ولا
يثرن لكنهن يجدن فى الإغاطة والتعذيب والتكيل والعبث دون
مراعاة لمشاعري رغم أنني لم أسئ إلى أى واحدة منهن.

سمعت:

- انتهيت؟!

هذا صوت زوجى يسأل فينبه. أقول وأنا أتابع النظر فى
المرأة:

- بعد قليل أكون جاهزة.

وألقي على الجميلة فى المرأة نظرة أخرى وأخرى
وأخيرة.. صبرا صبرا.. أبخَ العطر على صدر فستانى
البنفسجى. أطمئن على وردة الصدر البيضاء. على أن أبعد
كما عهدوا وكما عهدن؛ أنيقة جميلة لا تفارقها "مميزة
الحضور". ينتظر سكان العمارة الجارين الآن، لتبدأ سلسلة
العذاب والترويع.

غير أن يدى تتوقفان: الشرفة تغرينى فأطيع. أرى..
متقهقر خلف الزجاج مشهد الغروب الأورجوانى، والظلال
المتوازية والمتقاطعة تبدو لعينى مثل أشخاص تتحرك فى
المسافات البعيدة..

أفتح النور وأخرج. أنو من السور وأرتقى حافته
الباردة.. أجننى أبتم بينما الكآبة ساقطة فوق الأشياء تغلف
وتغلف حتى الأطفال تحتى يلعبون تغلفهم الكآبة أنظر إليهم..
أرقب وأحصي..

كم؟ ..ولد.. بنت.. ولد.. وبنت.. وولد وولد وبنت و..
ياه. ضاحكون مرحون. هل يضحكون ويمرحون من القلب..؟
أفضل لهم أن يكفوا. نصيحتي لكم يا أولاد أن تكفوا؟.. إنهم لا

يضحكون ولا يمرحون.. أنتم تصنعون العنف والقسوة
والمرارة يا أولاد، وتذكرت أول لقاء تعارف:

"دعينا للتعارف منذ عام فأجبنا. جلست بين
النساء. وتوسط زوجي الرجال.. تكلموا وصمتوا
وتكلموا. وكان زوجي متكلمًا بارعًا.. وتحدثت
النسوة وقلن.. ولكني تحدثت وقلت.. وكان صوتي
مرتفعًا لبقًا ذكيًا متحضرًا عن أصوات جاراتي..
لكنهن فجأة سألن وألحذن في الأسئلة؛ فعبس قلبي
وانكسر.. سكت.. أسكتتني.. صعدت إليهن عيني.
كن عاليات جدا. ارتفعت فجأة مقاعدهن. وانخفض
مقعدي. وقلن يواصلن: "متى يحدث؟" وكررن:
"متى يحدث؟ متى؟ متى؟". تأملت خلف شفاهن
أسنانا بيضاء حادة، وألسنة حمراء متوترة.
فشعرت بحاجة إلى التبول. ونهضت أقصد الباب،
وقام زوجي يحتويني بعناية. فاصطدمت بأطفال
انتشروا على الأرض وفوق المقاعد، وعلى
الجدران. تحاشيتهم، ولكن تعلقوا بعنقي ونيابي

وساقى. اندفعت بضغط البول. اندفعت بالقهر..
خرجنا، ودخلنا شقتنا. خلعنا وارْتدينا وخلعنا
ليرفعنى زوجى فوق الأشياء، فوق المقاعد ،
العالية.. ويغادرنى مجهدة لأفواه صغيرة. لرضع
وأطفال وصبية بشفاه صغيرة، وألسنة تكالبت على
ساقى صغيرة.."

المقطع الثالث:

الظلال..

الظلال الرمادية تتسلل إلى الغرفة بجسارة. غابت
الشمس وغاب الغروب فلا أرى الأنيق الوسيم. أنظر فى
ساعتى بلا حماس: يجتاحنى همّ ثقيل يحيطنى ويقعدنى..
يدعونى إلى نجنب الكلام والسمع والرؤية، يحثى على العنوّ..
أستعذب حلاوة المطاردة الذهبية. تشجبنى أصواتها الرديئة،
أنفاسها وأقدامها الرديئة..

مراسم السهرة تبدأ.. مراسمكم تبدأ وتستمر: الأبواب
تفتح وتغلق، الكلام والصياح والصخب.. تصعد يدى إلى

الكرافة لتفك المثلث. لا أرغب ولا ترغب زوجتي - أعلم -
فى المشاركة. أسقطونا من حسابكم سيداتى وسانتى. اطرقوا
بابنا فلن تجيب الشقة رقم (٢). صممنا ضرورى..

اطرقوا اطرقوا اطرقوا فلن نفتح. لنتكم -علم- فى
عرقنا يتصيب.. الرماة طلاب عنق المطارد الصحراوى
يفعلون، يتلذذون بالعرق يتصيب نسبح فيه، عظيم جدا ورائع.
أنتم تجيدون مراسمكم لصنع السيقان والأذرع والبرؤوس
والأفواه والملابس الملونة تملأ المدينة والصحراء وغرفنا
بالرعب والصياح والرماح الفضية الذهبية..

- مستعد؟

زوجتى تسأل:

- أنا جاهز.

أخرج من الغرفة إلى الصالة.. أتوقف فى المنتصف..
أوجه ناحية باب الشقة وجهى: الأبواب تفتح وتغلق وتفتح:
تعبّر بابنا أقدام كبيرة وأقدام صغيرة. سكان
الشقتين (٣)، (٤) صغار وكبار يضحكون. يمشون إلى الشقة
رقم (٥) المضيفة .. آه. خلف مربع النافذة بدت الأشباح تطارد

الرجل. أرجع فأصطدم بمقعد: الصلاة الوثيرة. بذلت زوجتى مجهودا شاقا ليبدو فيها كل شىء جميلاً يريح العين والقلب. فلأرح العين والقلب.. لكن لا أفعل: يجتاحنى -يعود- الهم مثيرا فى القلب الأسى والغىظ، فأمد يدي إلى مفتاح النور وأغلق لتسبح الصلاة الجميلة المريحة فى الظلام والغموض..

أطمئن قليلا. أجلس وأنا أفك مثلث العنق. الحرية.. الرمال الممتدة لا يدركها البصر.. أليس للهرب نهاية؟! كلهم الآن داخل الشقة المضيفة. رائع فباينا لن يطرق. رائع.. لكن عيونهم أراها معلقة ببابهم ترقب.. يتكلمون. يلوكون ويسفكون ويتتصتون...! أليس للهرب نهاية؟ أليس للهرب نهاية؟! فكرت فى أننى مرة قاومت الهرب، فسعيت بها إلى الطبيب:

"فزعنا إلى الطبيب فانكسر همنا بابتسامته

المشرقة. تعلقت عيناى وهو يتحدث بصور بعثت

فى نفسى بعض التفاؤل. وسأل الطبيب وسأل و..

كتب وأرخ ووزن وحل.. ثم جذبتنى الصور

فابتسمت.. ودعت ممرضته زوجتى وتوارت بها

خلف ستارة بيضاء، وقام الطبيب واختفى معها

خلف الستارة البيضاء. تابعت للحظة أو للحظات

أو لساعات وهى تتحرك -الستارة البيضاء.. ثم
عدت إلى الصور تعلوها مؤهلات الطبيب العلمية.
و"مراحل الأجنة"، و"شعر ركيك" يمدح صاحبه
طبيبنا المظفر مصدر بكلمات "بفضلك أنجبنا ورأى
ابننا الحياة فأشاع فى القلب الفرح" .. و.. ثم
سمعت زوجتى تنن فى يدى العبرى خلف الستارة
البيضاء فدق قلبى وانفجر.. فحضرُوا بأعناق
ممتدة مائلة مصابة بصغار الإبل، وداسوا بأقدامهم
لافتة مزقوها.. داسوا الكلمات السحرية.. نثروها.
كلماتى: الحياة.. ابننا.. رأى.. أشاع. القلب.. فى..
بفضلك.. الفرح. حاولت أن أعيد الكلمات وأرتب
لكن امتدت أيديهم ومنعت وجروا وداسوا..
داسونى: لحق الجناة المطارد الصحراوى. غرسوا
فى قلب الكلمات السحرية رماحهم.."

المقطع الرابع:

.. تسبح الصلاة فى الظلام الصامت. أنقل خطواتى
بحذر لنلا أصطدم بمقعد أو منضدة. أقصد مفتاح النور.
أتحسس. ألمس.. أفتح الضوء فيسقط على المقاعد والكنب

والأركان وزوجى القابع فى مقعده. رقبته مائلة إلى الأمام. لا يرفع رأسه. لا يرانى. نائم؟! مغشى عليه؟! غاضب؟! .. وسيم زوجى وأنيق وحزين..

أمشى إليه.. أقترب.. ألتصق به.. وأتحسس رأسه، شعره الوقور الأسود والأبيض. الأبيض غالب، والأسود أقل. وأمسح جبهته. أمسح. يفتح، ويتطلع إليّ بعينين ذابلتين.. منكسرتين وحزينتين، ثم يغمض. أهتز فتهتز فى يدي جبهته، لكنى أتجاوز هزتي.. وأتماسك ببسمة وضحكة. بمداعبات فراشنا الليلي وغير الليلي..

أقول بصوت حنون:

- قم نلحق بهم.

- أفضل البقاء.

بغير أن يرينى لون عينيه.

أقول بصوت مستحث:

- ينتظرون.

-

لم يرد عليّ. كأنه لم يسمع.. يثوب الحزن وننسى،
العالم كلما خلونا..

- وَعَنَّا.

يقول بحسم:

- أفضل البقاء.

جملته واحدة قاطعة، فأجلس في مقعد يجاور مقعده وأنا
أشعر بالسلام، وأثبت عيني في المصابيح المتدلية من النجفة
المذهبة ذات الأزرع العشرة.. كم جلسنا تحت إضاءات النجفة؛
تغمرنا سعادة القرب والصفاء.. وكم قال لي وقلت له.. أحب
زوجي الذي اختاره قلبي وعقلي..

العيون الآن على الباب.. النساء والرجال. السهرة
بدوننا عادية مملة فاقدة للحرارة.. باردة. السهرة ناقصة إذا
تخلفنا. بدونكما السهرة ناقصة وجافة. آه. نحن المادة الأساسية
لبرنامج الليلة.. الزهو في الاختيال في التأوه في الأعناق
المائلة بصغار الإبل في العيون تسد سهامها الجانية.. خبيثة
تفكك أوصالي وتفجر مئنتى.. وتذكرني بحرصي على زيارة
الطبيب:

"عزّيتى الممرضة ومدّيتى على سرير
الكشف وغطّيتى بملاءة بيضاء خلف الستارة
البيضاء. وكان زوجى جالسا تحجبه عنى الستارة
البيضاء. ودبت أن يكون بجانبى.. كنت خائفة
مرتاعة.. وجاء الطبيب وقال كلاما جيدا مبشرا
فسكت. وكانت الممرضة حنونّة جميلة الوجه
ومعطرة. وطلب الطبيب برقة أن أرخى عضلاتى
ففعلت.. ثم أدخل برفق إصبعه، فتجمع الألم فى
موضع واحد.. صرخت وغبّت عن الوعي
للحظات .. لكن رأيت جارأتى جئن ووقفن عند
رأسى، فاخفى الطبيب والممرضة ولم يهرع
زوجى. وأقبلت علىّ وجوه نساء كثيرات عرفتهن
فى مراحل عمرى. كن جميعا يحتبسن الأنفاس
انتظارا لتحقيق المعجزة. لعنت الوجوه ولعنت..
فتحت عينى وصرحت للطبيب بأنى مشتاقة
للمعجزة. ولكنى لم أسمع جوابه.. غبت مرة أخرى
عن الوعي لأجدنى مفردة. طفلة تلهو، صبية تحلم،
شابة ترقب مجيء الفارس الشهم يجعلها امرأة ككل
النساء الكاملات المكتفيات..".

المقطع الخامس:

.. أقدام حذرة تنق بلاط الممر.. تقبل على بابنا
الموصد.. النور فى عيني ساقط فوقى، وزوجتى الجميلة
بجوارى مطرقة.. كم مضى من الوقت؟ منذ متى ونحن
جالسان؟!..

الأقدام تتوقف.. أعرف الهوية. يضغطون "زر"
الجرس. الرنين المتقطع.. مؤذب.. متردد. يسكت برهة ويرن.
يسكت ويرن. تصميم. لكن قلبى مغلق كبابى وأنا كسيح، وأنا
ضريير، وأنا.. المطارد الصحراوى سقط تحت التل نعامة
تنبش بالرأس الرمال.. لا تحاولوا..

الرنين يتواصل.. غير مؤذب. بأصابع متشنجة.
صبورة وغيبة لكنا لا نحتج. نعرف. نتوقع فلا نهتم. نسمع
رنين جرس متتابع فى تمثيلية مملة.. آه.. يشتد.. حاد. يوترون
الأعصاب..

أصوات تأتى دفعة واحدة. ثم يتكلم واحد يقاطعه آخر،
يقاطعه ثالث، ثم تعود الأصوات مرة أخرى دفعة واحدة! لا
أحد يجيب. غريب. هل نسيا الموعد؟ تبدو الشقة خالية. علينا

إنن أن نرجع. لكن النور ظاهر أسفل الباب. ربما لا يسمعان وربما لا يريدان. لا إنهما ليسا بالداخل. لا إنهما بالداخل لم يخرجوا. فلنواصل.. فلنواصل..

يصم الأذنن الرننن العننن المؤثر.. آه.. تعلو أجراس كنائس الأحء! يضنقون إلى الأجراس الأئءى والأقءام. بقرعون الباب. بعءون سكان العماره والشارع والحن والمءننه إلى قرع الباب. أنتم تعذبون. نقتلون قربا وبعءا، صمنا وكلاما، سكونا وحركة، رفضا وقبولا. إنهم يلاحقون بنظرات الفضول وابئسامات الاستفزاز:

".. سئءى .. متى أءء؟ فأجاب الطئبب معءما على أوراننا: لئس بك ما بمنع ولاء عنءها ما بمنع، وسوف أءء.. متى يا سئءى؟ متى يا سئءى الطئبب أءء؟. قال: ربما الشهر القاءم أو بعء القاءم. أو بعء بعء.. كان الرءل حكئما ومبشرا ولم نفارق شفئنه الابئسامة. لكنى نطلعت بعنائة إلى حروف قصئءه المءح تعلوه وقلت إننا نءءا إلى معءزة يا سئءى. فأوصى بالصبر وبالصبر

وبالصبر. وقال جيرانى لما عرفوا: عليك بآخر،
فأكد الآخر رأى طبيبنا المظفر. فعدت إليه وقلت:
متى أمدحك يا سيدى بقصيدة؟.. واختال جيرانى
ووضعوا السيقان فوق السيقان، ولووا أعناقنا
مصابة بصعار الإبل، ودخنوا السجائر واعتلوا
مقاعد عالية جدا فوق منصة عالية جدا. وتعاليت
ضحكات وصيحات استفزازية مرعبة..."

أنهض إلى الباب.. مسافة ذراع بينى وبينكم ولكننى لا
أفتح. أعطيكم ظهري. أنتم المحقق، والشاهد والحارس
والسجان والجلاد، تحاكموننا متهما واحدا بريئا مظلوما.. آه.
لقد تلقفتنى الشوارع والجدران والأسطح وفراغات الصحراء،
"مطاردا" بالرماح الفضية الذهبية تحت خيوط الشمس المتمكنة،
"نعامة" مذعورة بتصميم المطاردين.

آه.. لقد أضنى الجرى والهزب والعنف والقسوة
"المطارد النعامة".. ولقد أجهده ودوخه بريق الرماح الباحثة..
وما هو بعينى النعامة يعثر أخيرا على نل الرمال المنشود..

الأمل والخلص والنهاية الجبرية. فأتحول عن الباب مازال
يرن ويُطرق ويرن ويُطرق ..

أبلغ غرفتي وأفتح النور. يغشيني بالضوء والحزارة
والسكينة.. ألاحظ مربع النافذة الزجاجي لا يظهر مطاردة ولا
بريقاً ولا نعمة ولا تلاً.. أبتسم وأخرج لساني يابسا وأتجه إلى
مرآتي وأخلع ملابس الخروج..

المقطع السادس:

.. الرنين والطرق معا.. آه.. أصابع وأنياب وأظافر
تغرس في تلافيف المخ. أغيب وأصحو وأغيب. كل جاراتي
يشاركن الأزواج الصناديد. كل الصغار ينادون. بشر العماره
والحي والمدينة يحاصرون.. يريدون أن نخرج إليهم.. لننضم
إلى السهرة التي انعقدت. الحوامل والصناديد والصغار يتوقون
إلى جلسة المساء التي لن تكتمل إلا بنا. على من سيتفاخر
الصناديد؟! على من ستتظاهر النساء بوجع الظهر؟!..

زوجي الحزين في وجهه خرائط الألم. أفهم نظراته
 ويفهمني. أراه يذهب إلى الباب فأبتسم مطمئنة. لن يفعل
زوجي. لن يفتح. ولن يجيب. أثق في تقديره. وحكمه

وتصرفه. يدرك أن جلسة المساء ليست صافية. لا يريدني أن أتألم، لا يحب أن يرى النظرات المستفزة.. لن يفتح زوجي ولن يجيب..

سيداتي المقدرات، عبثًا تحاولن.. واسمعن. ما عدت أهتم، وما عدت أفزع، ما عدت؛ لن يضيرني السلخ. لقد نجتن. ما عدت أفزع ما عدت.. لن يستدرجني أحد لأنفعل. لا أسمح بالإثارة. أنا واثقة من نفسي. ولن أتمكن أحدًا من استفزاز مشاعري. لست معذبة حتى الآن على الأقل. زوجي يكفيني. نعم زوجي يكفيني. ولكنني مرة أحسست بالخوف والرعب فأسرعت أستشير الطبيب:

".. حذرني الطبيب من الانفعال وأوصاني بالصبر.. ولما سألته عن دواء قال إن الحالة لا تستدعي أى دواء. وقلت لابد أن تحدث المعجزة، فطمأن وحذر وأوصى.. ولما طال الانتظار فقدت حماسي في مقابلة الناس..

وطرق بابي وأنا أحتسى وحدي شاي المساء.. كان زوجي خارج المنزل.. سألتني بفم

واحد: تتجنبين الزيارة والكلام؟ فقلت: هل أعد
شايًا؟. وركضت إلى المطبخ وعدت بالشاي..
وسألتنى -عُن- بغم واحد: ماذا قال الطبيب؟.
فأخبرتتهن أنه لم يجد لدى ما يداويه، فمصمصن
وزُمن كقطط بكلمات غامضة فانفكت أعضائى..
وشعرت بحاجة إلى التبول، فهرعت إلى الحمام
ولكنى لم أفعل.. كنت وحدى وكنّ كثيرات يحققن
ويحكمن.. وحين عدت وجدتهن يتمايلن ويتأوهن
ويتوجعن ويسندن جميعا الظهور بأكفهن.. كنّ
حوامل.. ثم طوّفن بأحاديث غريبة علىّ. تكلمن
عن الوحم والقيء ولون الدم وانقطاع الطمث
وحركة الجنين وخفة يد الطبيب واسم المولود
القادم. ثم أمسكن وقلن بغم واحد ساقط بينما كانت
نظراتهن نازلة علىّ: عليك أن تستشيرى طبيبا
آخر. وحينما قلت إن (آخر) قد رآنى ووافق الأول
زُمن - مرة أخرى - كقطط قلقة. تكلمن بكلمات
غامضة قارسة. فذهبت إلى الحمام.. ولكن سرعان
ما رجعت إليهن لأننى لم أفعل.. ولما رفعت

الأكواب إلى المطبخ سمعت ضحكاته تفرقع فى
الصالة. كانت ذات معنى واحد فهمته. فارتفعت
وهبطت وارتفعت وهوت مطارق على ألواح
نحاس فى رأسى أوجعتنى.. فهبطت مرمية على
بلاط المطبخ البارد.. نشدت الحمام وهنّ يواصلن
الضحكات ذات المعنى الواحد الذى فهمته.. نشدت
ولكننى آخ.. بُلْتُ قبل أن أنهض.. تَبَلَّتْ ساقاى
وشممتُ الرائحة. فصرحت ولم يسمع أحد. كانت
أصوات الضحك الذى فهمته أعلى من صراخى..

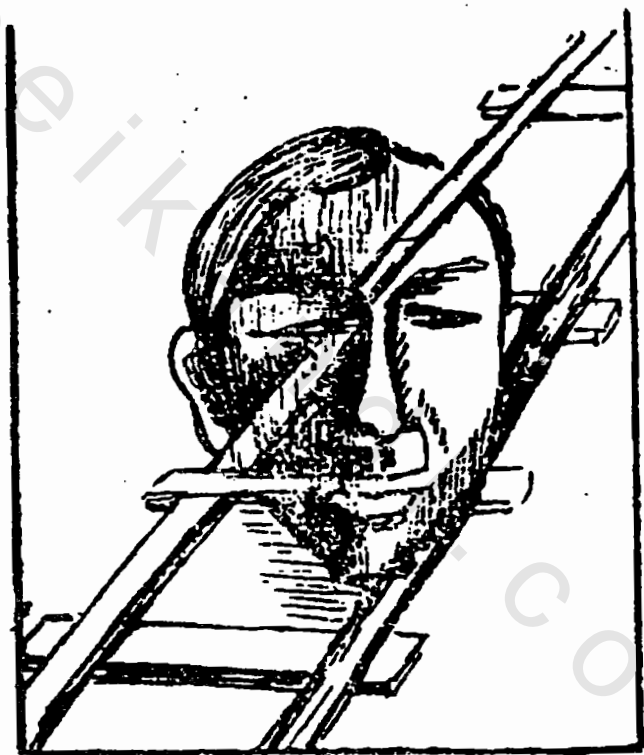
آه.. وأغادر مقعدى وأعطى ظهرى للباب يدق يدق
يرن يرن.. زوجى دخل غرفته دون أن يتكلم. أدخل أنا
الأخرى غرفتى بغير كلام.. ها هى الغرفة هادئة ساكنة راقية.
أضئ الأنوار وأصوات الباب تخف.. وتقل وتتوقف. أنصت
فأبتسم ليشرق فى رأسى عالم جديد لم أكن قد عرفته من قبل..
أغشى عالمى الجديد وأنا أتجرد من ثياب الخروج وأرتدى..
بينما أراقبنى جميلة فى مرأتى..

فبراير ١٩٧٦

obeikandi.com

النبش في تقاطعات الرداءة..

obeikandi.com



obeikandi.com

النبش فى تقاطعات الرءاءة..

(١)

.. مكتب المحقق يتوسط الغرفة المضاءة بالنيون الباهر. المحقق منكب على ورقة بيضاء خالية يخطط فيها بقلمه الأسود الأنيق. يخطط بخطوط حائرة.. على يمينه الضابط المظفر الذى اعتقلنى، تعلو كتفيه نجمات أربع، وترتسم على الوجه ابتسامة صفراء باهتة، وخلفه ثلاثة جنود بشرائطهم المتفاوتة وابتساماتهم الصفراء، بينما ينتظر الكاتب الكلمات التالية بعد أن فرغ من تسجيل ما أدليت به:

الاسم؟ السن؟ العمل؟ محل الإقامة؟ الحالة الاجتماعية؟.

مستعد -الكاتب- ولكن بابتسامة مماثلة: صفراء باهتة ومعادية.. كيف أضمن سلامة التحقيق؟

المحقق مهذب. هادئ وغامض. أنا أمامه غير مصدق. قلق ومتوتر. يتوقف عن التخطيط برهة ويرفع رأسه. يتفحصنى طويلا- بنظرة ثاقبة ثم يطرق ليعاود التخطيط على الورقة البيضاء الخالية من أية كلمة، فإزداد توترا ليندفع فى الأذنين صغير حاد لقطار قادم.. أفكر فيما حدث.. فى صور غريبة تلاحقت سريعة رعناء متشابكة: الجسد المطعون فى الفراش الدموى، التليفون فى صوت السيارة بوق مميز، فى الضابط المختال والجنود حضروا فاتحين: اقتحموا.. حاصروا.. أنا الذى اتصل بكم.. كبلونى. أنا الذى أبلغ.. تجاهلونى.. أنا صديق قديم. تحولوا وحرزوا واتصلوا فجاء آخرون بالملابس المدنية. وجاء طبيب. أجرى الكشف على القتيل. قلبوا الجسد المطعون.. قلبوه جميعا. قلبوا صديقى القديم ثم قادونى..

يد المحقق تكف عن التخطيط فجأة.. يسأل بشراسة

متخليا عن غموضه:

- شكري مختار: ما سبب تواجدك فى شقة المجنى عليه؟

آه.. أعلن عن نفسه. انجاب الغموض وبدأ الهم يتملك.
الصغير القديم للقطار العتيق القادم يقبل من بعيد وأنا مكبل
مرمى على الخططين المتوازيين:

- كنا على موعد..

- لماذا؟.. لماذا؟

بصراخ عدوانى.. أتردد لحظة لأفكر فى الحصار
المحكم بالجهات الست الموصدة الصماء، وبمشاعرهم العدائية.
- لماذا؟ .. لماذا؟ ... أجب.

الصوت الصارخ محمل بصفعات الغضب: ملح لا
مفر، ولكن الحال لا تمضى فى صالحك. ومن الخطأ
الاستمرار دون محام. ولكن الإدلاء بالسبب ضرورى فى
مواجهة السؤال القائم.

- لنحتفل بإنهاء خلاف قديم.

وعلى أن أندم لما بدر: كلمة "الخلاف" يسجلها قلم
المحقق الغاضب على الورقة التى لم تعد خالية. "الكلمة" مدخل

إلى متاعب صارت محتملة الكشف. تفتح بيدك بابا ما كان
يجب أن يفتح. سوف يولدون السؤال من السؤال لتتكاثر
الأسئلة المغذية المحاصرة. لابد من محام لتكون الأقوال
موجهة. الإجابات الغبية تثير وتشكك الدائرة. تكشف عن
المستور..

المحقق يبتسم بعينه الخبيرتين، المدربتين فيعاودنى
الصفير القادم. أضع أذنى فوق الشريطين الباردين أنصت
للجلبة الرهيبة القادمة.

- معلوماتنا أن القتل لم يكن له خصوم غيرك يا
شكري.

- سيدى: اعترفت بالخلاف، ولكن لم أفعل.

- كنت وحدك فى مكان الحادث.

- سيدى: لن أتكلم إلا فى حضور محام.

- فيما بعد. أجب الآن على أسئلتى.

- لا تنس أننى الذى أبلغت عن الجريمة.

- لا تنس بصماتك.

- سيدى: يجب أن يحضر المحامى.

- وخلافكما مشهود ومشهور. هل أنكر؟

- سيدى: أنت تتهمنى.. هل أنا متهم؟ هل أنا متهم؟..

هل أنا...

المحقق يعود إلى الصمت والغموض. ينظر فى الورقة التى لم تعد خالية. القلم الأسود الأنيق مارس العمل. ألحظ كتابة غير واضحة.. الضابط يفرك يديه فى شماعة وظفر. أقدام جنوده خلفى تضطرب.. الكاتب يتهدد.. يضغط بقلمه الكلمات المملأة..

يرسم الجميع ابتسامة واحدة، وتراقبني العيون بمعنى واحد "الإدانة". كيف أطمئن إلى سلامة التحقيق؟ كيف أخاف.. أرتجف. العرق البارد ثم العرق البارد. وتسخن الآذان بالصفير داخلهما يقترب فأرتعد على برودة القضيبين المتوازيين. أبلبل الملابس والمكان بالماء تدفعه كل فتحاتي فأشعر بالجفاف: انقطع الماء عن الشجر. انقطع. أحتاج إلى من يتكلم.. أين المهرب؟ المنجى؟ أين المحامى يسمع فيتولى المهمة؟ العجلات الوحشية تدنو أكثر منى جسدا مرميا بفعل فاعل لا أجهله..

أتهوى أمامهم. أسقط. سقط الرجل من النافذة بفعل
فاعل لا أجهله. أسقط تحت ابتساماتهم الواحدة، وعيونهم الواحدة
تحت أنوار النيون تظلم الآن بينما تطبق على تشابكات الصمت
والظلام والوجوه المترقبة وصخب عجالات القطار تدوس الغريم
وتمزقه، بينما أفكر في صديقي الذي حرمنى من شقيقته:

"بعث إلى برسول مهذب. طلب أن نتقابل
كى نصفى خصومة عشر سنوات. أعطيت الرسول
المهذب موافقة فورية. تعانقنا فى مقهى "سبأ" أمام
كل الرواد.. من يعرفنا ومن يجهلنا.. انتحينا فى
ركننا القديم نحتسى قهوتين تبرع بهما صاحب
المقهى العجوز. تبرع وهو البخيل تحية لتصالح
النجمين.. وأخبرنى صديقى القديم اللدود أن لقاءنا
قد تأخر.. تأخر كثيرا، فعاتبته على استماعه
للوشاة.. لامنى بدوره على استماعى للوشاة..
وقلت فى نفسى: متى يحدثنى عن أمانى؟ لقد كان
ذكيا فذكر أن أمانى -شقيقته الجميلة- ترمت بعد

أقل من عام. نبح زوجها ومزق بعجلات قطار
عائد من الإسكندرية. سقط. شاهد قال إنه رأى
بجوار النافذة المفتوحة رجلا من ظهره ما لبث أن
اختفى.. قيد الحادث ضد مجهول..

أظهرت استيائي وقلت في نفسي إننى كنت
في رحلة خارج الحدود. وقال صديقى القديم. نحن
نجمان نتربع على قمة النجومية ولم نعد بحاجة إلى
الإنصات إلى أقوال الوشاة. وقال.. وقال.. وقال
كلمات، مفعمة بحرارة الرغبة في فتح صفحة
جديدة.. : الآن علينا أن نلتقى ونصم الأذان عن
أقوال الوشاة، وافقت من فوري صديقى القديم. لكن
سألته عيناى عن جميلتى التى حرمنى منها رغم
الحب، ومباركة الأسرتين.. وكان نكيا، فأجاب
بصوت معتذر صدقته: علينا يا صديقى أن نصح
أكثر من خطأ. اضطربت وقلت في نفسى: هل
يمكن أن يصح الخطأ؟ ثم قمنا وتصافحنا وتعانقنا
على باب المقهى أمام العجوز ورواده المعجبين.

وقال فى أننى: فى عاشرة الغد سوف أكون فى
استقبالك ببببى لنجلس ونتحاور.. وافقت من فورى
صديقى القديم. وبعد أن مضى كل منا إلى سيارته،
انطلقت أنا بلا خطة فى شوارع المدينة.. لا أرى
غير وجه أمانى. جميلتى الأرملة، والجسد المذبوح
الممزق بعجلات قطار قد سقط بفعل فاعل لا
أجهله.."

(٢)

.. المحقق يرتفع فى فراغ الغرفة يصرخ أمرا بصوت
أجش، يأمر بالرد على سؤال ملح.. لا أفهم. تتلاقى نظراتنا
المتعاكسة. يحاصرون بشفاه تدين. يصرون على انتزاع كلمة
تريحهم ليغلقوا المحضر فينام الفرسان أو يموتون.. "الاعتراف".
أنزوى واهنا وقويا. أتحدث بصوت لا يخرج. يتحقق الزهو
والارتفاع والاختيال لو اعترفت.. هيهات.. أنا وأنتم فى
زنزانة واحدة بجهات ست موصدة فى وطأة زمن لا ينمو.
- لا فائدة من المراوغة.

عاد إلى الصراخ فأجزع وأصبح محتجًا:

- سيدى: هل أعترف بجرم لم أقترفه؟

- كل الأدلة ضدك. كل الأدلة ضدك.

الجلبة الرهيبة لا تتوقف. الحديد يضطك بالحديد،
والنظرات العدائية المتهمة تقرأ من "قرار" فورى مدفون فى
سابع أرض.. تتبش قبرا فى "جب" مغلق بألف سقف. و..
تكسر نظراتهم المتهمة عينى.. تقهرنى. أسحب
احتجاجى. أنسحب.. أنزوى فى قبر الجب المغلق واهنا غير
قوى. أهرب إليهم.. إلى أحذيتهم اللامعة. أطمع فى تثبيت
المعنى المعاكس.

- لن أتكلم إلا بحضور محام.

نهض ضاربا سطح المكتب. اهتزت الأشياء كلها فوق
سطح المكتب.. أسمع طرقات قطار الليل العائد فوق
الشريطين.. الصدى.. يزحف نوم أو عجز أو موت. أنظر فى
وجوه الفاتحين ينتظرون الإشارة الأخيرة.. أسبخ فى باطن
الأرض فى الجب فى القبر تحت طرقات الليل اللعينة..

- يحبس المتهم أربعة أيام على نمة التحقيق.

تتوالى الطرقات حادة مصممة. تقترب العجلات. تحمل الصغير المهاجم.. أرتد إليه: يأمر بأيام.. أترنح.. يأمر بشهور. يأمر بسنين. يأمر بمدى الحياة، فتقبل القاطرة الرهيبة وحشاً كاسراً لتدوس وتمزق في ليل أسود بمئات العجلات جسماً سقط في الظلمة بيد غير مجهولة.. و

أقع واعيا. تتسابق الأيدي شرهة ضائقة غاضبة مدججة بالبنادق والرماح والسيوف. تضعني على الخططين المتوازيين في طريق الخطر الوحشي.. كومة لحم عاجزة بعد يوم حافل بالعداء..

السيارة تجرى من دار التحقيق إلى جهة غير معلومة. أنا معصوب العينين.. أعمى داخل السيارة التي غادرت دار التحقيق إلى جهة غير معلومة. أنا والحراس المسلحون في زنزانة السيارة المغلقة.. أفكر في وحدتي والمأذق الذي وضعني فيه الجاني المجهول، هل كان على معرفة بزيارتي لصديقي فسبقني وقتله لتلبسني التهمة؟ أم أن عملية القتل كانت صدفة، وأين هذا القاتل الذي لا بد أن يظهر ليبرئني؟..

أختنق في الصدوق المحكم. أحتاج إلى هواء وماء ومحام. أرغب في ابتعاد الجند المسلحين يحاصرونني بعرق

أجسادهم، وأنفاسهم فى زنزانة السيارة تتطلق بنا إلى جهة غير معلومة.

أحتاج إلى ظهور القاتل فهو دليل براءتي، أو على الأقل يرسل خطابًا إلى جهات التحقيق ليرى حني. أتجشأ، أضرب سد الأجساد فينهرون. أحتج وأصيح فيضربون بالأحذية والبنادق. تدوسني سنايك الخيل.. أموت وأفيق على نظرات المحقق النارية تحرض على كشف المستور. أصمت فرقا من ضجة الحديد الغازية المتزنة الرتيبة ونحن فى سيارة التحقيق تمضى إلى جهة غير معلومة:

"أوصلنى المصعد إلى الطابق العاشر..
قصدت الشقة. الرقم ٤٠. طالعنى اسمه محفورا فى
نحاسة لامعة ثنائيا بلا مهنه "خالد العارف".
مشهور. بابى مصدّر بنحاسة مماثلة "شكري
مختار". كلانا "تجم" سينمائى يتربع على قمة
النجومية. نحن مشهوران. دور الفتى الأول مقصور
مقصور علينا. العدد: ستون فيلما.. وامتدت يدي
إلى زر الجرس. لاحظت الباب مواربا. ضغطت

ضغطة واحدة.. عبرت لحظة ولحظة ولحظات. لا
أحد يجيبني. دفعت الباب ودخلت.. صفقت
وناديت.. كانت الصالة ذات أضواء خافتة موزعة
على الأركان.. كانت معطرة وساكنة. وقفت فى
المنتصف وأنا أعاود النداء بالصوت واليدين..
تتاهى إلى أنين صادر من حجرة فى نهاية الممر..
صفر القطار الجامح ذو الضجة العالية.. أحسست
بضرورة التراجع فوراً لكن لم أفعل، بل أنكرت
إحساسى وعجبت. فزعت إلى باب الحجرة فى
نهاية الممر. كان الباب مفتوحاً. تقدمت.. جف الدم.
انقطع الماء عن الشجر.. فى كامل ملابسه البنطلون
والقميص ورباط العنق والحذاء الأسود اللامع..
تمدد فى فراشه مطعوناً بسكين لا تزال فى صدره..
الدم أحمر قان برائحة فيتامين تمتزج بعطر
النجوم.. زادت ضجة القطار العالية. هرعت إلى
صديقى القديم مذعوراً مرتجفاً. نزعت السكين. كان
يئن. تبللت يداى بالدم الأحمر القانى. تبللت ملابسى

بُلت.. آه.. شممت أكثر ذلك المزيج من رائحة
الفيتامين وعطر النجوم. وشممت بولى.. أراد
الكلام. اقتربت من فيه. سألته: من. من. من؟؟
فأجاب بشفاه لا تخرج صوتاً قلم أسمع. سمعت فقط
هدير قطار الليل العائد يمزق الجسد الساقط تحت
العجلات بفعل فاعل لا أجهله. وقفزت إلى التليفون
وأبلغت لم يسارع إلى الحضور من أبلغتهم. حضر
ناس وحضر الطبيب. اقتادوني بخشونة وعنف
توسطت الرجال المسلحين، تذكرت إحساس التراجع
والهزب. تذكرت إنكارى وعجبى. هرب دمى وأنا
وسط الرجال المسلحين. بينما رأيت مئات العجلات
الحديدية تدوس الجسد المطروح على المتوازيين
الباردين بفعل فاعل لا يمكن نسيانه..."

(٣)

.. الدقات الثلاث بيد الرئيس تعلن عن فتح الجلسة.
يعلو الرئيس والعضوين - ميزان بأصابع الفتاة النحاسية

المعصوبة العينين. تعلوه اللافتة ذات الخط العريض: (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل). أراقب من وراء القضبان القضاة الموقرين والفتاة العمياء والآية الحاسمة..

أغض عيني فأسمع طبل القلب في هدير الحديد يعود. العجلات لا تتوقف.. أفتح عيني على يد الرئيس تشير إلى الادعاء فينهض ويتكلم ويسأل الشهود، ثم يذكرني أنني حلفت اليمين. أضطرب ولكن بدون مقاومة. أستسلم رغم أنني لست الفاعل.. أحنى رأسي المفعمة بأمواج يائسة ممزوجة بأمل وإه ضعیف..

صوت الادعاء يفصل ثم يطلب "الإعدام"...
آه...الإعدام؟ الإعدام عقوبة القاتل. عقوبة القاتل الإعدام.
عقوبة الإعدام للقاتل. عقوبة القاتل الإعدام. عقوبة الإعدام
يصدرها القضاء... إعدام.....إعدام. يطن برأسي المنحني صوت
الادعاء.. يطن بقسوة وبغير رحمة..

الادعاء يصمت فأصحو متوقفا عن لعبة فك الجملة.
أرى القاضي يأذن للدفاع فيقف ويتكلم ويسأل الشهود، ثم يطلب
البراءة:

- أطلب البراءة لموكلي لأنه ليس القاتل.. يجب البحث
عن القاتل...

واصل المحامي دفاعه. فشردت عنه ضاحكاً في نفسه..
لا أتحمس للمتابعة. أجلس وأدير بصرى لأول مرة في صفوف
الحاضرين. معارف القَتِيل من الفنانين ومعارفي.. أقاربه
وأقاربي. أفحصهم.. الرجال والنساء.. مَنْ أعرف وَمَنْ أجهل..

أنهض بلدغة عقرب؛ ففي الصف الثاني تجلس أماني
شقيقة صديقي القَتِيل. الأرملة تنتظر تجاهي بنظرة جامدة. لكنها
ترسل إليّ معنى واحداً أفهمه. ترتدى السواد. تحول وجهها الجميل
عني دون أن يتراجع المعنى الواحد الذي أفهمه.. هاهي تعذبني.
تجلدني. لا تسندني بنظرة تعاطف، فأدركت أنها لن ترحمني..

أعود إلى المحامي وهو يدلل بأدلة لا أفهمها. أذكر بشدة
وأفهم "إدانة" الادعاء.. أهم أيضاً بفك جملة المحامي يطلب
البراءة: "أطلب البراءة لموكلي". لكن القلب امتنع. تضخم بالآلم،
بنظرة المعنى الواحد تعكسه عينا أماني.. أفهمه..

أطرق واعيا وأنا أذكر ما قال صديقي القديم: "يجب أن
نصحح أكثر من خطأ". ثم أرفع رأسي لمتابعة وجه أماني

تتوسط الصف الثاني، تبدو متجهمة، ومصرة على ما تفكر فيه؛ فأتساءل: هل تعلن عنه الآن فتتعد المشكلة، وتستحيل الحلول المقترحة؟! أم أنك يا أمانى ستراعين حبنا فتصمتين؟:

"تتوالى على ذهنى أصوات متعارضة.
سمعت أمانى تقول: الخلاف مستحکم ولا يمكننى
التحدى. قلت: لست قاصرا وأنا فى انتظارك.
قالت: يهددنى أخى خالد لو لم أتزوج من يسرى
الشاذلى الذى اختاره ووافق عليه. قلت: لن أسمح
بأن يسلبك أحد ولن أغفر لأخيك ولمن يتزوجك.
قالت: لا يمكن أن أسهم فى دمار أخى. غضبت
وقلت: وأنا؟ ألم تفكرى فى احتمال دمارى؟. قالت:
يمكن أن يظل الحب بلا زواج. قلت: هراء، لن
أستسلم. سأزيح من طريقى كل من يعترضنى حتى
بعد زواجك. قالت: الحكمة مطلوبة الآن وفى
المستقبل. قلت: "الوسط" كله يعرف، واسمى لا
يسمح بالهزيمة. قالت متحدية: ستورطك حماقتك،
ولن تحصل على شيء.. افترقنا على "خلاف".

"تظاهرنّا" كلّ فى طريق.. ولم أنس طيلة عام كامل
نظرات الشامتين.. وقد وقع حادث القطار وأنا فى
رحلة فنية خارج الحدود.. وحينما نشرت الصحف
عن عودتى جاءت أمانى.. جاءت أرملّة بثياب
الحداد ولم يجرى بالطبع شقيقها - صديقى القديم..
قالت: لن أتكلّم. ولن أشهد. ولكننى لن أسمح لك..
كانت حاسمة غاضبة، غامضة كارهة. خشيتها..
وافترقنا.. "تظاهرنّا" كلّ فى طريق. اندفعت
بسيارتى فوق المدينة لا أسمع ولا أرى سوى هدير
قطار الليل العائد تمزق عجلاته الجسد الساقط بيد
غير مجهولة"..
(٤)

.. الادعاء والدفاع والشهود والحاضرون والقضاة
والفتاة العمياء تحت الآية الحاسمة.. أشعر بقلبى ثقيلًا فى
صدرى.. تستجر فيه كلمات وصور رديئة. تستجر وتتقاطع
وتتوازى وتتداخل.. آه.. أرغب فى نوم طويل.. هبط النجم..
البراءة والإدانة. هبطت كل النجوم. آه.. أرغب فى العدم..

أنظر من العدم بعيون إلى القاعة. مرهقة. أنظر إلى
أميرتى وجميلتى التى أحببت.. أراها وأنا المعدوم تحدجنى
بصراحة واتزان بمعنى واحد واحد لا يتغير.. أفهمه.
ترتدى أمانى حدادا فوق الحداد.. هزت رأسها ونهضت.
سحبت عينيها فنهضت. مضت إلى الباب بثبات ومازالت
الجلسة قائمة منعقدة.. خرجت أمانى وغابت.. هجم القطار
الليلي. هجم بالخطر. شلت الأقدام وانسربت الحياة.. تهاويت
تحت هدير القطار الوحشي تذبح عجلاته وتمزق.. أغيب وأنا
أرى أكثر من أى وقت مضى.. أغيب وأنا وحدى الذى يعرف
الرجل المجهول..

فبراير ١٩٨٠

انكسارات دائرة في مساء رديء..

obeikandi.com



obeikandi.com

انكسارات دائرة فى مساء ردىء

(١)

.. ساعة الحائط تواجهنى بدقات خمس لا ترحم..
تحثني لأنهض وأفتح وأخرج وأهبط وأنطلق إلى "مونتابلا"
بقمة المقطم، ينتظرني فى الكازينو الشتوى يطل على الأحياء
والأموات معا. تحث ساعتنا المنذرة وتحرض يا نجاة، ولكنى
لا أفعل؛ فالمطر ثقيل غزير وراء زجاج الشرفة مازال
يتساقط. وصريير الريح فى ضربات الرعد تتحدى، فتلصقنى

بمقعدى السابح فى غيم أحرق ينساب فى الصالة الواسعة
رماديا مقبضا، ترسم ظلاله صورة محمول على الأعناق مشيع
بصراخ يعبر به الصاعدون فى الجبل.. وليس صياح بناتى
الثلاث فى غرفتهن بنهاية الممر إلا صراخ نسوة الميت يتكئ
على أعصابى فيوتر ويزعج ويوشك أن يعجزنى.

هل أذعن للتحدى فأرفع أعلام استسلامى فلا أنهض
ولا أخرج ولا أصعد إلى رجلى؟.. سعد فى الرعد والريح
والمطر، وجلس يرقب حضورى.. أراه مبلى الثياب منكشأ
ينفض عن شعره المترجع قطرات المطر..

البنات الثلاث.. صغيرات يصحن. تصيح كل بنات
المدينة.. تصيح النسوة خلف المحمول إلى المئوى أسفل الجبل
يعبرون به إلى القبر المفتوح الذي أعدوه له عقب وفاته، وربما
أعدوه قبل الوفاة بيوم أو أيام..

ينفذ الصياح من الباب المغلق رفيعا حادا يلزم فوضى
الرعد والبرق والمطر. يتابعن من النافذة. يصحن لعبا أو
مشاجرة أو رعبا دون أن يفتح بابهن. لا أسأل.. أحب أن أخلو
ولا يشغلني أحد. تكفى السنوات التي مضت من عمري..

لا أعبأ بالصراخ أو الصياح. يجنبني وهن بالداخل
الإثارة والغضب.. يتركني كلما خلوت. يدرك أنني لا أحبهن
عصر كل يوم فلا أسمع الكلام والشكوى والطلب. ينسحبون إلى
غرفهن بنهاية الممر، فأفزع متوترة إلى حجرتي. صوان
ملابسي؛ لأخلع وأرتدى في مرآتي أراني متوردة غير شاحبة.
أعود بعد أن أتعطر إلى الصالة الخالية تدفعني إلى الباب
والسلم والطريق دون أن أرى أحدا فأستقل سيارتي إلى
الجبيل..

ما زال الصراخ متصلا مزعجا وقاسيا، يستهدفني تحديا
يثيرني فيدق القلب دقا أشعر هذا المساء أنه جديد عليّ. هل
أذعن وأستسلم؟ هيهات.. لن يحدث. لابد من الصعود للقائه.
وعليهن أن ينتظرن بالصراخ أو الصمت، وعلى زوجي جمال
حين يعود - لو عاد- أن ينتظر. لست أهتم. لكن الصراخ
الرفيع يشتد.. لكنني أسمع صراخ النسوة يثرن الغبار خلف
المحمول إلى المثنوى ونحن نصعد في الجبل..

هيهات.. لن أراجع. أمضي نحو الباب مصممة. لكن
نقلا يصيب قدمي فأقف بينما تعرض بعيني ليلة تعارفنا الرائعة:

فى ليلة رائعة من سبتمبر دعانا ماجد
الهورى صديق زوجى الجديد إلى منزله لتناول
العشاء. كان الهدف توثيق الصلة بين الأسرتين.
كلاهما يعمل فى ميدان واحد. التصدير والاستيراد.
كانت رغبة زوجى جمال فى تلبية الدعوة أشد.
حدثنى زوجى عنه ونحن فى الطريق إلى المنزل.
حدثنى معجبا ومفتونا بالشخصية المقتدرة الصارمة
الصادقة. وقال إن المراقبين لنشاطنا يراهنون على
أنى سأنجح فى فترة وجيزة. وقال: إن بينى وبين
صديقى الجديد سنوات طويلة من العمر والخبرة..

لم أمنع إحساسا نشطا بالإعجاب بالرجل
قبل أن أراه. وحينما التقت نظراتنا وهو يستقبلنا
مع زوجته اضطربت اضطرابا أخرجنى. أمسكت
بذراع واحدة من بناتى وهو يصافحنى ضاغطا
يدى. تواصل الاضطراب والخجل بما وجدته فى
نظراته وبما أحسسته من يده. لم أشعر طوال
الجلسة إلا به. كنت مبهورة فلم أتذوق كل ما قدم

إلى من شراب وطعام وشراب!! .. اندهشت
وحذرت، تضايقت وسامحت. اغتظت وصفحت،
غضبت وانجذبت؛ عيناه رغم ملاحقاتي لم تتوقفا
طويلا على.. كائنات تعبران بى بسرعة هاربة.
رضيت وتقدمت..

اندفعت بقوة اللحظة الرائعة أعجزت فى
كل معنى رادع: الأمومة - رابطة الزواج -
الصداقة الجديدة المتوقعة - نجاح زوجى جمال
المتواصل - شباب زوجى البارز أمام كهولة ماجد
صديقه الجديد و.. اندفعت - لا مفر - بقوة اللحظة
الجميلة الرائعة أملت على أمرا حاسما لا يمكن
رده بأننى لابد أن أمتلك وبسرعة هذا الرجل..
عجز كل رادع عن قهر اندفاعى. عجز.. عجز..

عدت إلى منزلنا وحجرتنا وفرأشنا
بأعصاب منتصبه كالشوك.. نالنى زوجى الشاب
بينما كان الكهل يحتوينى. طلع على النهار والكهل
مستمر يحتوينى.. أيقنت خلال دوامة النهار

تأخذنى -أنتى أعانى مشكلة ليس فيها من طرف
سواى.."

(٢)

.. الجو خارج المنزل أحمق ردىء. معاكس لا يكف
عن التهديد. يفجر الحسرة والكمد. يذكى الشوق إلى صعود
الجبل.. يعلوه كازينو مونتابللا الشتوى. جلست نجاه فى قاعته
الزجاجية على المنضدة. أراها تنتظرنى بمفردها، تترامى أسفل
الكازينو قبور الحى قصد أحدها مشيعون أثناء صعودنا
بالسيارة فأصابنا الوجوم..

أشهى وأزفر وأشهى وأزفر بغضب وأنا أغوص فى
مقعدى مصغيا لضربات القلب العالية. تنهض زوجتى بهدوء
زائف وتبدد الغيم الزاحف على الصالة بإنارة (النجفة) ذات
الألف مصباح تبهر عينى فأنزعج. أحتج دون أن أفصح.
أرغب فى أن نبقى فى الرماد بلا ضوء.

أحب تأمل الظلام مادامت الحرب فى الخارج مستعرة
مانعة رادعة.. أحب أن لا يتأملنى أحد. لكنى لا أفعل. أحتج
وأرغب. أحب ولا أفعل. أراهم تحت الألف مصباح أنارتها جميعا

زوجتى. يجلسون فى مقاعدهم الستة أمامى وحولى: الذكور والإناث. أنجبتهم لى جميعا زوجتى.. جاعوا وعذبوا. كبلوا وطارنوا فضربت الأقدام فى كل اتجاه.. العمل العمل. وشخصت الأبصار إلى تعدنى مقتدرا لا يرد سائلا ولا يخيىب رجاء.

ترتفع فى الفضاء تحت الأنوار الباهرة عشرة أيد تمسك بخمسة كتب. يطالعون. يتظاهرون بالانصراف عنى لكننى أفهم: يراقبون يتلصصون يفهمون.. وزوجتى منهمكة فى "التريكو" لكنها ترقب حركتى. تهتم ولا تفصح تعلم ولا تتحدث.. الجميع يتظاهرون عدا "دنيا" الصغيرة، بريئة لا تفهم. تعد واجبها المدرسى. الصف الأول..

اعتدت واعتاد المراقبون. أنى لهم أن يفهموا فيقدروا؟ لا أظنهم يكفون عن الملاحقة، ينهالون بسياط عيونهم الفضولية. متأمرون تقودهم زوجتى. تستر نواياها بصمت كاذب وعناد غير ظاهر وابتسامة زائفة، لا تريد المواجهة.. فربما يتحطم كل شيء. تراقب على أمل أن تستعيدنى دون خسائر..

أتراخى وأغوص فى مقعدى أكثر. أهرب إلى الزمن فى ساعتى وساعة الحائط وساعات الأولاد والعالم. ينحرف

العقرب بشدة وسرعة عن الخامسة. ينهض نصفى ولا أكمل.
يفور دى سخطا.. يفور توقا ولها ومشاعر محددة.. لابد من
الرحيل إلى الجبل تعاليه جميلتى؛ وجمتُ ووجمتُ ونحن نمر
بالسيارة أقودها على قبور حى الجبل يستقبل أحدها ميتا مشيعا
بالغموض والعيول والغبار.. لابد من الرحيل وإلا اختنقت
ومت. وليستمرروا فى تأمرهم. لا فائدة. فات أوان التراجع ولم
يعد للصحوة المنشودة وجود بأمر القلب تسكنه جميلتى منذ ليلة
تعارفنا:

"حينما دخلت شابة متألفة برفقة زوجها
الشاب صديقى الجديد - غزت قلبى واستقرت. من
النظرة الأولى غزت قلبى واستقرت. شعرت بشكة
فى القلب وأنا ألمس أو أضغط يدها.. لا أدرى..
وتحرك رادع فورى ما لبث أن تقهقر. خرافة.
امتألت فتهللت وتصاعدت فى لحظة واحدة. لكن
عاودنى الرادع الخرافة. هبطت وأنا أتقدم الجميع.
وحلت على الخرافة كآبة مزعجة. شعرت بأننى
أهم بمضغ لحم نئى غير مشروع..

كانت المرة الأولى التى يزورنى فيها
بأسرته صديقى الجديد. كانت المرة الأولى التى
أرى فيها زوجته الشابة. هرب الدم. انسرب.
جف. اعتصمت وأرى انفعالى النشط بالكلام
أفصل وأطيل مخالفا طبيعتى المعروفة المائلة إلى
الصمت والإيجاز. جُبت مواضيع عديدة قبل تناول
العشاء وبعده. كنت أراهم ولا أراهم. كان الوجه
الشاب المتألق ينغرس فى القلب بخفق توالى طوال
السهرة فرحا وأسى، رغبة ورهبة، حذرا وطموحا،
أملا ويأسا، نشوة ومرارة. لم أعن بالجمال والتألق
بقدر ما عنيت بمعنى واحد وعته نظراتى الأولى
أسرنى وهزنى وقربنى.. كان بالوجه الجميل همّ
عميق دعانى إلى سبره والكشف عنه رغم الصغار
حولها وشباب الزوج الناجح..

استمعت إلى صوت قلبى ينصح بالخضوع
والإجابة.. انزلت عقب ذهاب الأسرة فى مكتبى.
طلبت أن لا يهددنى أحد بحركة أو نداء. كان جزء

منى قد اجتث. لزمت مكتبي حتى الفجر أفكر فيما
اجتث.. وتساءلت: هل بمقدورى أن أسترده؟.
غادرت إلى الفراش.. ونمت وصحوت بتصميم
جسور لا يخالطه رادع..

حدثت غير كليم الوجه الذى تمكن واستقر.
وقلت: إننى أنتظرك منذ الميلاد. وقلت: إن ميلى
السريع الحاد إرادة لا يمكن أن ترد. وقلت: إن
ميلي حق لى محال التخلّى عنه. وقلت: إننى غير
مطلع على الغيب حتى أتوخي الحذر فلا أصنع
زواجا رسميا، وحياة رسمية، وأسرة جعلت الأقدام
تضرب فى كل اتجاه، وتحفزنى بألف عين ترانى
مقتدرا لا يخيب رجاء. وقلت وأنا أسقط بنوم أو
موت: كيف لى أن أعلم ما يجرى فى الغيب.."

(٣)

.. الخامسة والربع. أقوم وسط الرماد.. أمشى ساعية
إلى الباب المغلق. ألاحظ خيوط المطر ماتزال ثقيلة.. ألاحظ
صرصرة الريح وانفجارات الرعد.. يتضاعف الهم فتخور

قوتى وتهن إرادتى فلا تفتح يدى الممتدة. هل تتجح البنات؟ ..
آه.. ألا يكف صخب كل نساء المدينة؟ .. وزوجى الشاب
يراقبنى بوجه غير واضح من وراء زجاج المطر. رادع آخر
لأبطل المحاولة..

تراجع يدى وتسقط دون أن تفتح .. آه.. الخور والشلل
والصخب و.. أتهاوى من قمة الجبل تحرضنا فننسى ما عدانا.
أندرج مرتظمة بالضخور الصلدة السوداء.. يسكن جسدى
مهشما بين الشواهد المفزعة وسط الظلام أمام مدخل الجبل
فأرى القبور مغلقة يغطيها الغموض. لكننى أرى أحدها مفتوحا
يلقف جسدا كان حيا تندبه امرأة يواسيها المشيعون.. عبرنا
بالمنظر ونحن نصعد فى الجبل. أرى فأذكر الوجوم والقلق
والفرع يشمطنا جميعا.. أذكر توتر عجلات سيارته تجمعنا
صاعدة. أذكر المشهد الغروبى يجب أن ينسى ليتمكن الخروج
والصعود. فمعه أنسى كل رداة واقعة ومحتملة..

"كان لقاؤنا الثانى فى كازينو الجبل
الشتوى. حضر أربعتنا فى سيارته يقودها لنشهد
حفل زفاف ابنة صديق مشترك. كانت تجلس على

يمينه زوجته التى لم تخف قلقها. وكنت أجلس
خلف ظهره مباشرة، ويجاورنى زوجى الذى كان
يتحدث فيتولى مهمة كسر الصمت الذى شملنا بعد
دقائق من تحركنا..

فى مرآة السقف الصغيرة أمامه جعلت
أتأمل عينيّه. وكان هو موزعا بين المرأة يبتسم لى
وبين مراقبة الطريق يتفادى مفاجآته النشطة. وحين
اقتربنا مع الغروب من مدخل الطريق الصاعد فى
الجبـل - شاهدنا قبور الحى قائمة شواهدا الكثيرة
العدد.. وشمّت أنوفنا رائحة غريبة غير عطرة
وغير كريهة فرجع الصمت. وكان يمشى خبيـا
جمع قليل من الرجال يتقدمهم أربعة يحملون.
وكانت تتبع الرجال نسوة بملابس سوداء.. كانت
ترتفع الـلـولـولـات وتتعالى كلما انطلق صوت مبـحـوح
ينادى المتوفى. كانت زوجته. كان: "جملى"
و"عزى" و"بابى" و"عمودى" الذى سقط.. وكان ثمة
غبار أثارته الأقدام المتعبة، ولم يكن وحيدا سوى
المحمول على الأكتاف الأربعة..

عاد زوحى وتولى مهمة كسر الصمت
الذى حل بنا.. وبلغنا قاعة الكازينو الزجاجية
الباهرة الأضواء تضيح بالموسيقى والغناء
والرقص. انصرفت بعينى إليه خائفة عليه فور
جلوسنا على المائدة. أخافتنى جنازة الغروب..
ضايقتنى أصوات الصبايا يتضحكن بدلال وإغواء.
كان الضجر. وجاءت نسوة الغروب الردى
وشاركن.. وعلا الصوت المبوح يندب الجمل
والعز والباب والعمود الذى سقط. فكان الخطر.
وكان الهلع. وكان الخوف. وكان الحرص. فسددت
إليه نظرأتى غير مبالية وهو يراقبنى طويلا هذه
المررة بعينين مجهدتين محمرتين..

بكيت فى نفسى وأطرقت عاودتنى تفاصيل
ليلة سبتمبر الرائعة: اللقاء الأول.. الدهشة
والانقلاب العظيم.. وقلت فى نفسى إننى مقبلة على
أمر ما الليلة. وقلت لا فائدة من الخجل واستدعاء
الروادع الخرافية. وقلت من فوق الجبل: فليسمع
الأحياء وغيرهم: هذا الرجل لى.. أحبه.. دعوه

لى.. ولم أعبأ باحتجاج الأحياء وغيرهم.. لم أعبأ.
ولما رفعت بصرى لم أجده. كان المقعد خالياً:
صفعتى كفوف الأحياء وغيرهم.. فزعت ولم
أسأل أحداً. وحضرت المرأة تولول وتنادى رجلها
خلف الرجال وسط الغبار تحت الغروب بمدخل
الجبل، فقلت: إننى مقبلة على أمر ما هذه الليلة..
قمت ولم يسأل أحد. مضيت إلى الممر
أسلمنى إلى باب القاعة.. أسلمنى إلى الساحة
الخارجية الضئيلة الأضواء ولم يسأل أحد: كنت
مدفوعة بقوة معلومة فلم أهتم. رأيت واقفا وحده فى
طرف الساحة يطل على سهل القبور قد سقط عليه
الظلام والغموض. هرعت إليه بقوة معلومة. دنوت
منه.. التفت إلى ماذا يديه. تشابكنا وتلامسنا
وتحركنا إلى الجانب الآخر تظهر منه أضواء
الأحياء القريبة. جعلنا وراعنا قبور الحى المظلمة
الغامضة.. همس لى بكلمة واحدة: "أحبك". فأجبت
مستسلمة وأنا أنكر كل شىء بكلمة واحدة:
"أحبك" ..

عدت.. وعاد دون أن يسأل أحد. لكن
العيون الأربعة راحت تفتش وترصد تفاصيل القوة
المعلومة.. نهضنا وباركنا وتمنينا ومضينا إلى
السيارة، عبرت السيارة بأقصى سرعة بمخرج
الجبل فاسترحنا. لم أر القبور ولم أشأ. ولم أكن
أحب أن أرى غيره..

جلست في فراشى بعد أن نالنى زوجى
ونام: لا أرى غير وجهه الرائع هددته تفاصيل
المنظر الردىء بمدخل الجبل. بُحَّ صوتى بالبكاء
أشارك امرأة المتوفى وتشاركنى العزاء. بللت
الدموع كل الفراش حتى الصباح. وقال فى التليفون
فى أذننى متردد الصوت: أنتظرك فى الخامسة فوق
الجبل، فجاءت الأرملة تذكرنى فلم أعترض.
وأعلنت من القمة بكل الصوت تصميمى.. لم أشعر
بالروادع الخرافية. انزوت. حيثى الأرملة
ومضت...".

.. دنيا الصغيرة تهب لنهوضى تتعلق بساقى. لا تفهم.
ولكنى أقرأ سؤالا عن حركتى فى عينيها الصغيرتين تدبرهما
بين الزجاج ينقره المطر والوجوه المترقبة ترتسم فيها ملامح
العداء.

تصعد عيناها إلى.. أنحنى وأرفعها. أقرب وجهها..
أعود إلى قراءة السؤال فى العينين الصغيرتين. أغضب وأحج
زجاج الشرفة والوجوه العدائية.. أكلما دون كلام والرعد
يتواصل: لابد من الخروج يا دنيا لابد. تجلس أمانى يا
صغيرتى فى ركننا المحبوب مبتلة الثياب والشعر. كيف يمكن
أن تتقى مضايقات الرواد؟ لابد من الخروج يا دنيا لابد..

أنزل الصغيرة بعناية. أربت الخدين. تهدأ فتتركنى.
أقصد الباب صامتا مدفوعا بما لا يمكن قهره. أشعر بما يجرى
فى قلوب المراقبين. أشعر. كآبة رفض. قلق قهر. خيبة أمل.
وربما رغبة أكيدة مثارة بضيق عظيم فى أن أذهب ولا أعود..
ها هو الحل السحري للمعضلة كما يرون. ويكفى أن
ترفع المنبوذ أكتاف أربعة تطوعا فى زمن الغروب فيما لو

صمم وأصر. ها هم قد توصلوا إلى الحل السحري الحاسم: إما البقاء المقهور بسطوة العيون المطاردة وإما الرحيل النهائي المودع باللعنات الحارة..

ولأننى قدير وقادر ومقتدر فسوف يظل الحل السحري الحاسم مجرد فكرة واهنة لا تقبل التنفيذ.. كيف يمكن التخلي؟ كيف؟ لم يبق من الرباط الرسمى إلا الوصف والفعل والأبناء. أما الحب هذا "الجميل" الذى حدث، لم نعرفه.. كان مجرد كلمة تُقرأ وتُسمع وتُقال وتُشاهد. وحين تتمكن "الكلمة الجميلة" من القلب بعد عذاب الانتظار يكون من الجرم التخلي. كيف يمكن التخلي؟ كيف؟ وفرق بين أن يخفق القلب لسراب مجهول وأن يخفق لمن يستقبل ويستجيب وينصت ويفعل ويطيع وينقاد..

هاهى "الكلمة الجميلة الساحرة" متمكنة ومحال أن تهددها يد عابثة. عليهم أن يرضوا. لا خيار لهم.. دوامة العمل، ورتابة الحياة، والكلمات الواحدة لا تتغير لا يمكن أن تطوى تحرقا ملحا وشوقا غالبا إلى الكلمة الجميلة الغازية..

.. تحقق ما نشدت.. تحقق، وليس التخلي سوى سقوط من القمة إلى مثنوى مفتوح ينتظر الضحية بلا خيب ولا غبار

ولا ندبة.. وحينئذ يستريحون. فلقد نفذت لهم الشق الآخر من
الحل السحري..

هيهات.. هيهات فلم تنضب الكلمة العزيزة نفرتني من
جنازة الغروب المزعجة ونحن نصعد، وجعلتني أعبر بالسيارة
سهما بمخرج الجبل ونحن نرجع فلم أر لحدا ولا شاهدا ولا
حفارا ولا أثرا.. لقد كان الوجه الجميل ينطق بالكلمة المدهشة
في مرآتي الصغيرة وفي قلبي اللاهث:

".. كان الوقت غروبا وأنا أقود السيارة في
الطريق المؤدى إلى الجبل لنشهد فوق قمته حفل
زفاف ابنة صديق لنا.. كانت زوجتي بجوارى
تتستر خلف صمت اعتدته. وكان في المقعد الخلفي
صديقي الجديد تجاوره زوجته.. أماني.. كانت
خلفي مباشرة. كان الوجه كاملا في المرآة لأن
القلب بها امتلأ..

قبل أن نصل إلى نقطة الصعود بمدخل
الجبل عبرنا بقبور قديمة انبعثت منها رائحة واحدة
غريبة.. وكانت بالقرب منها جنازة صغيرة تسرع

تحت الغروب تجاه قبر مفتوح وقف أمامه رجل
شمر عن ساعديه. كان عدد الرجال قليلا، وكانت
النسوة أكثر عددا. كان الحاملون الأربعة مسرعين
فأسرع المشيعون فأنثروا الغبار فاختلط بلون
الغروب.. وصاحت النسوة صيحات لم أصدقها
فضاعت في هدير السيارة.. نفرت وتضايقت
وزدت من سرعة السيارة تصعد إلى الكازينو،
وعدت إلى الجميلة في مرآتي وقلبي..

خلف المائدة التي جمعتنا فشلت في قهر
نظراتي. أحببت أن أنفرد بها وأتكلم. كان ما يحدث
بداخلي شيء لم أجربه من قبل.. وكانت القاعة
تصطبغ بالموسيقا والرقص والغناء وأصوات
الحاضرين وضحكاتهم تفرقع في القاعة المعبأة
بالعرق ومختلف العطور..

ضاق صدري ونشبت هواء نقيًا. وكنت
منقبضا بجنازة الغروب تغزوني وبالحفار المشمر
ينتظر. ضاق صدري ونشبت هواء نقيًا.. نهضتُ
وهي مطرقة. هرعت إلى الساحة الخارجية. لجأت إلى

السور أطل على الحى المجاور تسطع فيه الأنوار بينما
القبور فى الأسفل غارقة فى الغموض والظلام احتوى
أحدها ميت الغروب والغبار والصباح..

رجعت بخطوات تدنو. رجع بصرى. كانت
خطوات جميلتى الشابة.. مددت ذراعى فأسرعت.
تلاقينا ولم يتكلم لسانى.. أحسست بارتجافة مراهق
وأنا الكهل. فقدت توازنى وتراجع كل شىء وغام:
العمل والزوجة والأبناء والنظام عدا أمانى مفجرة
الكلمة الجميلة الفاتحة الساحرة..

تناهت إلينا أصوات الداخل المتنافرة، وطل
صمتنا ولم يتكلم لسانى، وعادت جنازة الغروب
والغبار والصباح إلى غزوى فانتصب القبر
المفتوح يقف ببابه الحفار المشمر، فقلت هاربا
لأمانى أبوح بكلمة واحدة: "أحبك". وجدتها تلمح
الشواهد المشرعة بالأسفل وتجبب بكلمة واحدة:
"أحبك".. آه.. ها هى "الكلمة الجميلة الفاتحة
الساحرة" معلنه.. وددت لو سمعوا صوت القلب..
عادت إلى القاعة وعدت..

عقب انتهاء الحفل مضينا إلى السيارة وهبطنا.. زدت من السرعة حينما اقتربنا من المخرج فلم أر شيئا... قضيت بقية الليل عقب فعل لم أرغبه. وقلت في التليفون صباحا وأنا الكهل: أحبك، أحبك، وأنتظر في الخامسة بالكازينو، وقلت وأنا الكهل: لم يعد في الحياة غيرك. وقلت وأنا الكهل: إن الحياة الآن رائعة...

جاء أكبر الأبناء وقال كلاما، وجاءت دنيا وقالت كلاما.. ولكنى كررت وأنا الكهل على سمعها: "أحبك" وأحب كل شيء لأنى أحبك. وقالت فى سمعى سأحضر، وشكت وقالت: أين كنا؟ لم لم نلتق من قبل؟ وهل نصبر ونتكتم؟. وقلت وأنا لا أرى غيرها: أنا أعلن من فوق الجبل أسمع المدينة. وقالت وأنا أفعل.. أفارق زوجى إلى الأبد..."

(٥)

.. آه.. الرداءة مازالت مستمرة حقيقة لا تتكرر. المطر والرياح والرعد والبرق حقيقة لا تتكرر. ووجه زوجى خلف زجاج المطر فى صياح بناتى حقيقة لا تتكرر. لكن الجبل القائم

يعلوه الكازينو يحتوى الرجل العالى غزا القلب وتوطن وأنسى
حقيقة لا تتكرر. وجنازة الغروب بالأصوات المنكرة تزعج
وتتفر حقيقة لا تتكرر. وها هي اليد أخيرا تمتد إلى الباب لا مفر
تفتح بسرعة فأخرج وأغلق وأهبط إلى سيارتى ساعية إلى
كازينو الجبل تحت زخات المطر وانفجارات الرعد، ووسط
صياح نسوة المتوفى دون أن أهتم: فموعدنا حقيقة لا تتكرر.

(٦)

.. فوضى الخارج متواصلة. والخروج الآن يفجر يفجر
الصمت. وتوقع أن ينهال الكلام من كل جهة خناجر وسيوفا
ورماحا وأسلحة عصرية ترمى بك إلى المثلوى.. هيهات..
القدرة.. تتضاعف.. أشعر. والقلب ضخم قوى بفعل الكلمة
الفاصلة. وعليهم أن يفهموا ويقدرُوا فلا يتدخلون ولا يختارون.
ها هو الباب أفتحه دون أن أرى الزوجة والأبناء. أضرب
درجات السلم بأقدامى واثقا مطمئنا ولا أهتم بالمراقبة
الجماعية.. أهدف إلى كازينو الجبل. أركب سيارتى وأهرع
إلى الكازينو..

يونيو ١٩٨٠

الفهرس

obeikandi.com

الفهرس

م	القصة	الصفحة
١	الرسم على الماء	٩
٢	الـكـلام	٣١
٣	مقاطع من أغنية غير مسموعة	٤٥
٤	النبش فى تقاطعات الرداءة	٧١
٥	اتكسارات دائرة فى مساء ردىء	٩٣
-	الفهرس	١١٩

obeikandi.com

كتب أخرى للمؤلف

obeikandi.com

كتب أخرى للمؤلف

أولاً- الإبداع القصصى والروائى:

أ- المجموعات القصصية :

- الجرح: مجموعة قصصية، ط (١) لجنة النشر للجامعيين، ١٩٧١، ط (٢)، الأنجلو المصرية-القاهرة، ١٩٩١، ط(٣) دار الإبداع ٢٠٠٨، ط(٤) بورصة الكتب ٢٠١٣.
- الكلام: مجموعة قصصية، ط(١) دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨١، ط(٢) الآداب-القاهرة، ١٩٩١، ط(٣) دار الإبداع ٢٠٠٨، ط(٤) بورصة الكتب ، ٢٠١٣ .
- أمواج الفردوس: مجموعة قصصية، ط(١) الأنجلو المصرية-القاهرة ٢٠٠٥، ط(٢) دار الإبداع ٢٠٠٩.
- يوم: قصص، ط(١) أجيال- الجيزة، ٢٠٠٨.
- الصباح فى الوديان : بورصة الكتب، القاهرة ، ٢٠١٣ .
- لم ينج أحد...: بورصة الكتب، القاهرة، (تحت الطبع) .

ب- الروايات:

- سلوى الروح: ط(١) مكتبة صقر ، طنطا ، ١٩٦٠ ،
وط(٢)، دار الإبداع ، القاهرة ، ٢٠٠٧.
- العائد بالحب: ط(١) دار الإبداع- القاهرة، ٢٠٠٦،
وط(٢) أجيال - الجيزة، ٢٠٠٨.
- فوق الأحزان: ط(١) دار الإبداع- القاهرة، ٢٠٠٨،
وط(٢) إيزيس ، المنصورة ، ٢٠١٢.
- صخب الهمس: ط(١) دار الإبداع - القاهرة، ٢٠٠٩،
وط(٢) بورصة الكتب ، القاهرة ، ٢٠١١.
- حدائق الخريف : ط(١) بورصة الكتب ، القاهرة ، ٢٠١٢.
- تحت الأحزان: ط(١) بورصة الكتب - القاهرة ، ٢٠١٣ .

ثانياً: الكتب :

١. فن القصة القصيرة عند نجيب محفوظ. ط(١) مكتبة أم القرى، الكويت، ١٩٨٤، ط(٢) الأنجلو المصرية ١٩٨٨.
٢. في البلاغة العربية (علم البيان). ط (١)، الأنجلو المصرية ١٩٨٨.
٣. قيم الإبداع الشعري في النقد العربي القديم. الأنجلو المصرية ١٩٨٩.
٤. تنوق الفن الشعري في الموروث النقدي والبلاغي. الأنجلو المصرية ١٩٨٩.
٥. في البلاغة العربية (علم المعاني). ط (١)، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩١.
٦. مقاييس الحكم الموجز في الموروث النقدي. الأنجلو المصرية ١٩٩١، ط ٢ ، بورصة الكتب ودار السياب بلندن ٢٠١١.
٧. الخطاب النفسي في النقد العربي القديم، ط(١) ١٩٩٣ مكتبة الأنجلو المصرية، ط(٢) ٢٠٠١ مكتبة الآداب، ط(٣)، مكتبة الآداب ٢٠٠٦، ط(٤) بورصة الكتب ودار السياب بلندن.

٨. فاعلية التعاقب في الشعر العربي الحديث. الأنجلو المصرية
١٩٩٥.
٩. جدلية الأداء التبادلي في الشعر العربي المعاصر. ط(١)
مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٥، ط(٢)، الأنجلو المصرية
١٩٩٩.
١٠. الصنعة الفنية في التراث النقدي. ط (١)، مركز الحضارة
العربية ١٩٩٩.
١١. طاقات الشعر في التراث النقدي. ط(١) الأنجلو المصرية
١٩٩٩، وط ٢ مكتبة الآداب، ٢٠٠٧.
١٢. إحكام النص الشعري في الموروث النقدي والبلاغي. ط(١)
الأنجلو المصرية ٢٠٠٠.
١٣. نظرية الإبداع الشعري عند النواجي. ط (١)، الأنجلو
المصرية ٢٠٠٠.
١٤. تجليات الإبداع الأدبي: دراسات في الشعر والقصة
والمسرحية. ط(١) مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠٠٢.
١٥. أساليب علم المعاني بين النظرية والتطبيق. ط (١)، مكتبة
الآداب ٢٠٠٣.

١٦. الفنون البيانية والبديعية بين النظرية والتطبيق. ط (١)،
مكتبة الآداب ٢٠٠٣.

١٧. النثر الفني في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي. ط
(١)، الأنجلو المصرية ٢٠٠٣.

١٨. الشعر العربي في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي. ط
(١)، الأنجلو المصرية ٢٠٠٣.

١٩. البنيات الكاشفة عند نجيب محفوظ دراسات في النص
القصصي من عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٩٦. الأنجلو
المصرية ٢٠٠٤ .

٢٠. مرايا التجلي : رؤى نقدية كاشفة. ط (١) الأنجلو المصرية
٢٠٠٥ .

٢١. فيض القلم: مقالات في الثقافة والأدب. ط ١، الأنجلو
المصرية ٢٠٠٥.

٢٢. نجيب محفوظ حالما بالقمر. ط ١، الهيئة العامة لقصور
الثقافة ٢٠٠٦.

٢٣. الأداء التبادلي في الشعر العربي ، مكتبة الآداب ، ط (١) ،
٢٠١٠ .

٢٤. لعبة الضمائر فى قصص وروايات نجيب محفوظ ، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠١١.

٢٥. لعبة الضمائر فى قصص وروايات نجيب محفوظ ، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠١١.

٢٦. تقنيات السرد الشعرى فى الشعر العربى الحديث ، مكتبة بورصة الكتب، ٢٠١٣ .

٢٧. الخطاب الرئاسى فى الأدب العربى ، مكتبة بورصة الكتب ، (تحت الطبع) .

٢٨. الرسالة الرئاسية فى الأدب العربى ، مكتبة بورصة الكتب ، (تحت الطبع) .

عن المؤلف:

١- تجليات الفن القصصى عند حسن البندارى : دراسات

نقدية لعدد من النقاد ، ط(١) ، دار الإبداع ، القاهرة ،

٢٠٠٩ ، ط(٢) دار الإبداع ، ٢٠١٠ .

٢- آفاق الإبداع الروائى عند حسن البندارى : دراسات

نقدية لعدد من النقاد ، ط(١) ، دار الإبداع ، القاهرة ،

٢٠١٠ .

٣- دراسات عن بعض روايات المؤلف فى مجلة الرواية

قضايا وآفاق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، العدد

العاشر ، ٢٠١٣ م .

الناشر

بورصة الكتب



مكتبة

بورصة الكتب للنشر والتوزيع

٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩ - ٠١٢٨٧٩٧٢٧٩٧ - ٠١٠٠١٨٨٩٣٦٣

٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩ - ٠١٢٨٧٩٧٢٧٩٧ -